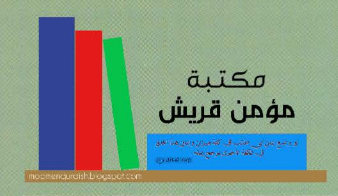
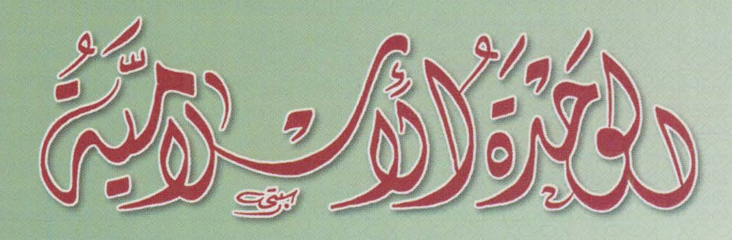


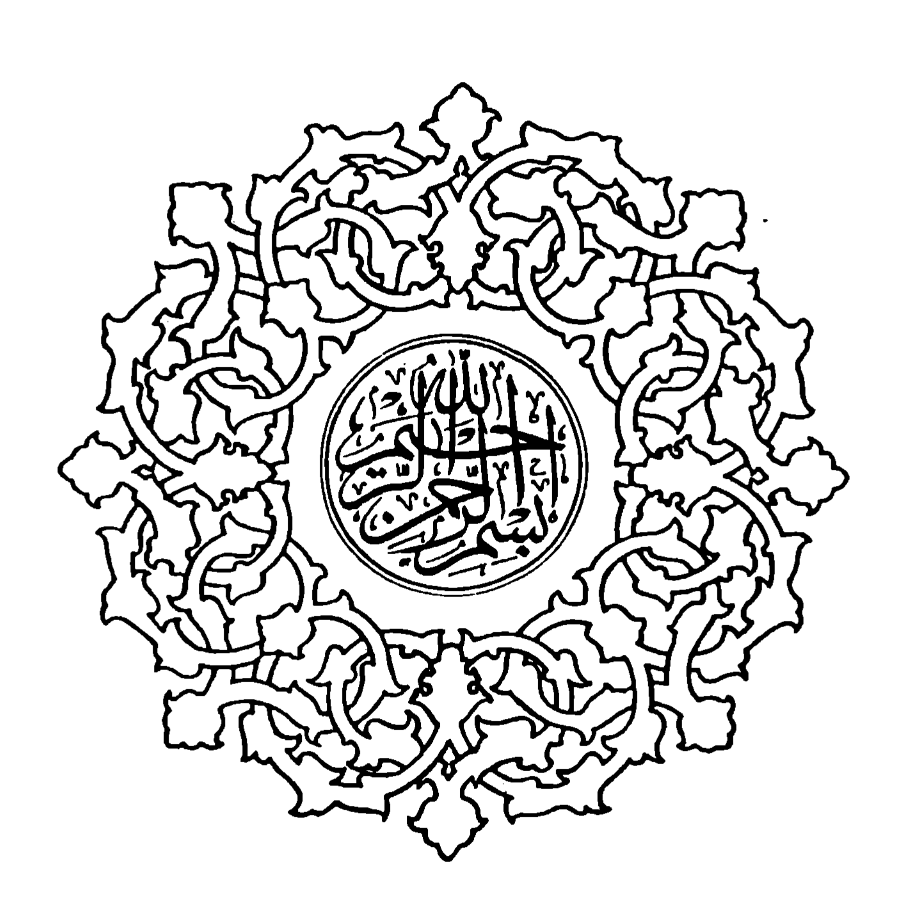


من منظور الثقلين



آية الله السيد محمد باقر الحكيم

مؤتمر تكريم آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم


بسم الله الرحمن الرحيم

الوحدة الإسلامية

من منظور الثقلين

السيّد محمد باقرالحكيم



اسم الكتاب: الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين

المؤلف: آية‌الله الشهيد السيد محمدباقر الحكيم

الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم‌السلام

الطبعة الاولى: ١٤١٣ هـ ق

الطبعة الثانية: ١٤١٧ هـ ق

الطبعة الثالثة: ١٤٢٥ هـ ق

المطبعة: ليلى

الكمية: ٥٠٠٠

شابك: ٤-٢٥-٨٦٨٦-٩٦٤ ISBN: 964-8686-25-4

---

www.ahl-ul-bayt.org

أهل البيت عليهم السلام

في القرآن الكريم

إنما يريد الله

ليذهب عنكم الرجس أهل البيت

ويطهركم تطهيرا

سورة الأحزاب / آية : ٣٣

أهل البيت عليهم السلام
في السنة النبوية

إني تارك فيكم الثقلين
كتاب الله وعترتي أهل بيتي
ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً

« الصحاح والمسانيد »

كلمة المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام
بمناسبة مؤتمر تكريم آية الله الشهيد السيد محمدباقر الحكيم قدس سره

عن رسول الله صلى الله عليه وآله : «أقرب الناس من درجة النبوّة أهل العلم والجهاد»

وعن أميرالمؤمنين علي عليه السلام : «العلماء باقون ما بقي الدهر... أُولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة الى دينه، آه آه شوقاً الى رؤيتهم». «نهج البلاغة ـ الحكمة ١٣٩»

«سلام الله ورسوله وصلواتهما على الأرواح الطيّبة للشهداء، واخصّ بالذكر الشهداء الأعزّاء الرّوحانيين والحوزات العلمية... السلام على الخالدين من رجال الدين المثيرين الحماس في الآخرين، الذين دوّنوا رسائلهم العلمية والعملية بدماء شهادتهم ومداد دمائهم، والذين صنعوا من شموع حياتهم جواهر مضيئة على منابر الخطابة للناس لهدايتهم ووعظهم.

الفخر والخلود لشهداء الحوزة والرّوحانيين الذين قطعوا عن أنفسهم حبال علاقاتهم ببحوثهم ودروسهم ومدارسهم في معمعة الجهاد، وفكّوا عقال تمنّياتهم الدنيوية عن حقائق علومهم، وخَفّوا لضيافة الملائكة حاملي عرش ربّهم، وأنشدوا نشيد الحضور في مجامع الملكوتيين.

السلام على أُولئك الذين تقدموا نحو كشف حقيقة التفقّه في الدين، وأصبحوا لأقوامهم من المنذرين الصادقين، بحيث أصبحت قطرات دمائهم وقطع أجسامهم تشهد بصدق كلّ جزء من أحاديثهم. وحقّاً لا يُنتظر من رجال الدين الحقيقيّين في الإسلام والتشيع إلّا أن يكونوا في دعوتهم الناس الى الحقّ وطريق ذات الشوكة هم يقدّمون الضحايا الأوائل، وأن يكون ختام دفاترهم بدمائهم.

إنّ الذين أدركوا حلقات الذكر للعرفاء العلماء الحوزويين، لم يسمعوا منهم في خلسات شهودهم أي أمل سوى الشهادة، وهم بدورهم في ضيافاتهم بمحضر التقرّب والخلوص لم يكونوا يطلبون من عطايا الحقّ سبحانه وتعالىٰ سوى عطية الشهادة».

من رسالة الإمام الخميني قدس سره الى الحوزات العلمية

في شهر اسفند عام ١٣٦٧ هـ.ش

أربعة عشر عاماً تمّر على تأسيس المجمع العالمي لأهل البيت‰ وخلال هذه المسيرة سعى المجمع أن يقدّم على صعيد نشر الثقافة والمعارف الإسلامية، في الدفاع عن حريم القرآن الكريم وسنّة النبيّ الأكرمﷺ وكذا الدفاع عن كيان وحقوق أتباع أهل البيت‰ كل ما في وسعه ليصل الى مستوىٰ ما يطمح إليه السيد القائد آية الله العظمى الخامئني(دامت بركاته).

ومن هنا نشط المجمع في مجالات البحوث والتحقيقات ومجالات التعليم والتبليغ و...

إنّ المجمع العالمي لأهل البيت‰ يشعر بالاعتزاز والفخر وهو يأخذ على عاتقه مسؤولية تكريم العلماء والذين نذروا حياتهم من أجل الدفاع عن الثقافة الإسلامية الثرّة وقيم الإسلام الأصيلة، ومن هنا يشعر المجمع بالفخر وهو يقيم مؤتمره التكريمي لآية الله الشهيد السيد محمدباقر الحكيم‏ نائب رئيس المجمع العالمي لأهل البيت‰ ، هذه الشخصية العلمية الفذّة التي قدمت خدمات كبرى.

ومن المؤكد أن آية الله الشهيد الحكيم‏ واحد من أبرز الشخصيات العلمية والسياسية ليس على مستوىٰ العراق والعالم الشيعي فحسب بل والعالم الإسلامي كلّه.

إنّ سعي السيد الشهيد آية الله الحكيم‏ وجهاده العلمي والسياسي كان ولاشك وراء جزء مهمّ من التغييرات الكبرىٰ على صعيد الصراع مع حزب البعث المتسلّط في العراق.

فلقد نهض هذا العالم الربّاني بمهام نشر ثقافة أهل البيت‰ من خلال نشاطاته الواسعة سواء في التدريس وكتابة المقالات والقاء المحاضرات في العديد من المناسبات.

وهذه مؤلفاتهالتي طُبع بعضها والتيستطبع في المستقبل تشهد بنشاط هذا المجاهد الشهيد.

ولقد قيل: «إن قوام أُمور الدين والدنيا بشيئين: القلم والسيف والسيف تحت القلم».

ولا ريب أنّ آية الله الشهيد السيد محمدباقر الحكيم كان مسلحاً بهما معاً.

فهذا يراعه الذي يسيل حكمة وعلماً، وهذه السيوف المصلتة التي كانت تنتظر إشارته والتي طالما قاتلت الكفر وتحدّت الظلم والظالمين.

وقد جاء في الحديث النبويّ الشريف عن سيّدنا محمد صلى الله عليه وآله قوله: «**ثلاث تخرق الحجب وتنتهي الى ما بين يدي الله: صرير أقلام العلماء ووطءُ أقدام المجاهدين...**».

ومن المؤكد أن صرير قلم العالم الشهيد ووقع خطى المجاهد السعيد كان يملأ الخافقين وهو يتّجه في مسيرته الجهادية الى أن تفتحت له أبواب الشهادة وحظيٰ بلقاء ربّه ربّ العالمين.

وبعد ربع قرن من حياة المنفىٰ والمهجر والبُعد عن الوطن عاد السيد الشهيد الى أرض الوطن بعد أن هوىٰ النظام البعثي العفلقي ؛ عاد السيد الشهيد ليستقر في جوار مراقد أجداده الطاهرين.. عاد ليعيش بين ظهراني شعب العراق المسلم المعذب المقهور، عاد من أجل أن يسهم في بناء ما دمّره الكافرون والظالمون.

ومن فوق منبر الجمعة راح الشهيد السعيد يلقي خطابه الوعظي والارشادي من أجل نشر الوعي في صفوف المؤمنين وكانت محبوبيته بين شعب العراق تزداد يوماً بعد آخر..

ولكن .. يا للحسرة والأسف انطفأ هذا المصباح المتوهج لأن الأبوام التي اعتادت الحياة في الظلام لم تعد تتحمّل هذا الضياء الساطع؛ فامتدت يد الغدر لتعتدي على حياة هذا المجاهد بعد أن أدّى صلاة الجمعة في جوار المرقد الطاهر للإمام علي عليه السلام .

وعانق السيد الحكيم الشهادة فائزاً بلقاء الله ويالها من مسيرة حافلة بالجهاد والعطاء تتكلّل بهذه النهاية السعيدة والفوز العظيم.

ولقد خاب سعي الضالّين والمنافقين إذ أرادوا اطفاء هـذا النـور ، إلّا أنّ السـيد الحكيم لم يمت لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وإذا غـاب شـخصه عـنّا فـإنّ شخصيته ما تزال تشع بالنور من خلال ما قدمه من عطاء...

وما أجمل ما قاله القائد آية الله العظمى السيد الخامنئي(دام ظله): «كان هذا الشهيد العزيز عالماً ومجاهداً تحدّى نظام صدّام الخبيث سنين طويلة وبعد أن سقط رمز الشرّ والفساد وقف سدّاً قوياً بوجه المحتلّين الأمريكيين والانـجليز ليـبدأ جـهاده فـي مـقاومة المخططات المشؤومة مستعدّاً للشهادة في طريق الجهاد الطويل والالتحاق بقوافل الشهداء من آل الحكيم وغيرهم من شهداء العلم والفضيلة في العراق».

يقوم المجمع العالمي لأهل البيتعليهم السلام بعقد المؤتمر التكـريمي بـمناسبة ذكـرى استشهاد العالم الفذّ المجاهد شهيد المحراب آية الله السيد محمدباقر الحكيم وبالتعاون مع المؤسسات ذات الاهتمام؛ وذلك بتاريخ الثامن عشر من رجب الأصب (١٤٢٥ هـ) في العاصمة طهران، وسيحضر بهذه المناسبة جمع من علماء العالم الإسلامي لإلقـاء كلمات التكريم لهذا الشهيد الكبير.

وتفيد اللجنة الثقافية للمؤتمر التكريمي لآية الله الشهيد السيد محمدباقر الحكيم من هذه الفرصة لتشير الى نشاطها الذي ينقسم الى قسمين:

القسم الأوّل: إعادة طبع مجموعة من آثار ومؤلفات الشهيد وهي كالآتي:

١ ـ إعادة طبع كتاب دور أهل البيتعليهم السلام في بناء الجماعة الصالحة المجلدين الأوّل والثاني.

٢ ـ إعادة طبع كتاب الوحدة الإسلامية من منظور الثقلين.

٣ ـ إعادة طبع كتاب علوم القرآن بالتعاون مع مجمع الفكر الإسلامي.

٤ ـ إعادة طبع كتاب تفسير سورة الحمد بالتعاون مع مجمع الفكر الإسلامي.

٥ ـ إعادة طبع كتاب القصص القرآني بالتعاون مع المركز العالمي للـدراسـات

الإسلامية.

٦ ـ إعادة طبع كتاب الأُخوّة الإيمانية بالتعاون مع مؤسسة دار الغدير.

٧ ـ إعادة طبع كتاب ثورة الحسين عليه السلام بالتعاون مع مؤسسة الإمام الحسين عليه السلام.

القسم الثاني: اعداد وتوزيع الأقراص المضغوطة التي تشتمل على كتبه التي ستطبع لأوّل مرّة بمناسبة إقامة المؤتمر التكريمي.

١ ـ طبع حياة وسيرة آية الله الشهيد السيد محمد باقر الحكيم من قبل مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية.

٢ ـ طبع كتاب الأربعة عشر مناهج ورؤى من قبل مؤسسة طبع آثار الشهيد آية الله الحكيم وبالتعاون مع المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام.

٣ ـ طبع كتاب شهداء العلم والفضيلة في العراق من قبل المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام الذي يشتمل على سيرة وحياة مئة وعشرين شهيداً من علماء العراق باللغتين العربية والفارسية.

٤ ـ اعداد وتوزيع الأقراص المضغوطة التي تحتوي على المجموعة الكاملة لآثار الشهيد الحكيم.

في الختام أجد من واجبي أن أُقدّم فائق شكري وتقديري الى كل الدوائر الثقافية والتنفيذية التي مدّت يد العون من أجل اقامة هذا المؤتمر والى كل ممثليهم المحترمين الذين شاركوا في الجلسات والاجتماعات التحضيرية..

أسال الله العليّ القدير أن يوفّق جميع أتباع أهل البيت عليهم السلام وأن يغمرهم بألطاف وليّه ولي العصر بقية الله المهدي وأن يعجّل فرجه.

محمّد حسن تشيّع

المعاون الثقافي للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

كلمة المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

لعلنا لا نجانب الحقيقة لو قلنا إن من أخطر القضايا وأدق المهمات التي تصدّىٰ لها أئمة أهل البيت عليهم السلام خلال حياتهم الزاخرة بالعمل والجهاد وسعوا بكل وجودهم من أجل تحقيقها في الواقع الخارجي علىٰ أُسس القرآن الكريم وسنّة النبي الأمين صلى الله عليه وآله هي وحدة الأُمة وتماسكها في إطار الكيان الإسلامي العام، حفاظاً علىٰ عظمته وهيبته أمام أعداء الإسلام والمتربّصين به، وتحقيقاً لمصلحة الإسلام العليا في بناء الأُمة ورشدها الأمثل في السير اللاحب نحو الله سبحانه وتعالى في أجواء الحب والأُلفة والكلمة الطيبة والموقف الهادف، بعيداً عن الضغائن والتعصّب والتنافر والتقاطع فيما بين فرقها ومذاهبها وتجمعاتها ومحاورها، التي نمت في أجواء تركات الجاهلية الأُولىٰ وأهواء بعض الحكّام المنحرفين والسلاطين الذين نزوا علىٰ سدّة الحكم وعاثوا في بلاد الله وعباده ظلماً وفساداً، ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيِهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ** ﴾[1] ﴿ **وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ اللّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾[2].

---

(١) البقرة: ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

(٢) الرعد: ٢٥.

وقيل من تناول هذه القضية بدارسة شمولية مترابطة تتناولها كمحور موضوعي في البحث والتحليل في آيات الكتاب الكريم وسيرة أهل البيت عليهم السلام . ومن هذا القليل المسدَّد هو سماحة آية الله السيد محمد باقر الحكيم ﷺ مؤلف هذا الكتاب، الذي جمع في عطائه الإسلامي الوحدوي بين النظرية والتطبيق، وناغمت أُطروحتُه تجربتَه ، ولعلّ السرّ في التوفيق الذي أحرزه في هذا الكتاب وأمثاله يكمن في هذا الجمع الفريد ، فقد عاش في كنف أكبر المرجعيات الاسلامية المعاصرة المتمثلة في مرجعية والده آية الله العظمى السيد محسن الحكيم ﷺ التي شهدت انفتاحاً شاملاً بين فرق المسلمين ومذاهبهم علىٰ صعيد المطارحات العلمية والفكرية ، وعلىٰ صعيد الممارسة السياسية والاجتماعية ، وكذلك مرجعية آية الله العظمىٰ المجاهد الإمام الخميني ﷺ التي خاضت كفاحاً مريراً وجهاداً متواصلاً من أجل إقامة حكومة الفقيه الإسلامي العادل ، وقادت دفة هذه الحكومة المباركة بعد قيامها، وأثبت للعالم كلّه عظمه الإسلام وقدرته علىٰ توحيد الأُمّة وتفجير طاقاتها وإثراء قدراتها ، لا على صعيد مواجهة الطاغوت المتفرعن بكل وسائل القدرة المادية والهيمنة الاستكبارية وحسب ، بل علىٰ صعيد الأُمة ذاتها في إثبات هويتها الرسالية الواحدة وقدرتها علىٰ الصمود والبناء ، وطرح النموذج الحيوي الرائد للأمم الإنسانية المعاصرة، كما أنه عاش في كنف التجديد العلمي والطرح الرسالي الهادف للاسلام بأُفقه العالمي المعاصر من خلال مرجعية الشهيد السعيد آية الله العظمىٰ السيد محمد باقر الصدر ﷺ ، بالاضافة الى التجربة التي عاشها في قضية الوحدة من خلال الاوضاع السياسية والاجتماعية في الساحات الاسلامية ، وخصوصاً الساحة العراقية ، ومحاولات الاستعمار وبعض الحكومات العميلة التي حكمت وسيطرت علىٰ العراق

وشعبه علىٰ اساس سياسية «فرّق تسُد» ، والتركيبة المذهبية في بلده العراق، وقدرة المسلمين في مثل هذا البلد الإسلامي الاصيل علىٰ التعايش والتكافل الإسلامي فيما بينهم.

كل ذلك أثمر أُفقاً واسعاً في قلمه وترابطاً موضوعياً في رواه نجدها واضحةً في مضامين مفردات هذه الدراسة البكر ، التي بدأت بتمهيد عن الوحدة الاسلامية من منظور حضاري ،كاشفاً فيه عن أهميتها ، ومستعرضاً لمستلزمات الموقف الإسلامي في مواجهة التحديات المعاصرة ، وكيفية معالجتها ، وأساليب تطوير وتدعيم الحالة الاسلامية في هذه المواجهة ، والضرورة الواقعية والحضارية لقيام الوحدة الاسلامية .

ثم يؤسّس هذه الدراسة علىٰ أُسس من الثقلين المباركين مبتدئاً بالمنظور القرآني للوحدة ، الذي تناول في آياته الكريمة ظاهرة الوحدة والاختلاف في التأريخ الانساني ، وعلاج أسباب الانحراف عن الدين الحق فيها ، ويربط ذلك منطقياً بأُسس الوحدة في المجتمع الإسلامي عقائدياً وأخلاقياً ، مستوعباً فيها الوسائل الشرعية من القرآن الكريم والسنّة الشريفة ،لتحقيق هذه الوحدة ، مشيراً فيها إلىٰ الثمرات والفوائد التي يكشف عنها تأريخ أهل البيت عليهم السلام ، باعتبارهم روّاد هذه الوحدة والقادة إليها .

ثم يسبر غور التأريخ المشرق لأهل البيت عليهم السلام وهم يخوضون غمار مسيرة الوحدة الاسلامية في الأُمة في مختلف المراحل والادوار ، مقرراً فيها المباني التي أسسوا عليها منهجهم العملي في إرساء هذه الوحدة المباركة ، مستنبطاً منها نظرية متميزة لأهل البيت عليهم السلام في الوحدة الاسلامية ، والتي كانت رائدة للمسلمين في مسيرتهم الاسلامية عبر التأريخ ، ولم يهمل البعد النقدي من خلال المقارنة بين نظريتهم عليهم السلام والنظريات الأُخرىٰ ، التي

تعاطاها البعض هنا أو هناك .

ثم يخلص سماحته إلى نتيجة علمية قائمة علىٰ أُسس الثقلين الكريمين ، مدعومة بالواقع التأريخي الرائد لأهل البيت عليهم السلام في أُسس ومنهج التقريب بين المذاهب الاسلامية في مرحلتنا المعاصرة .

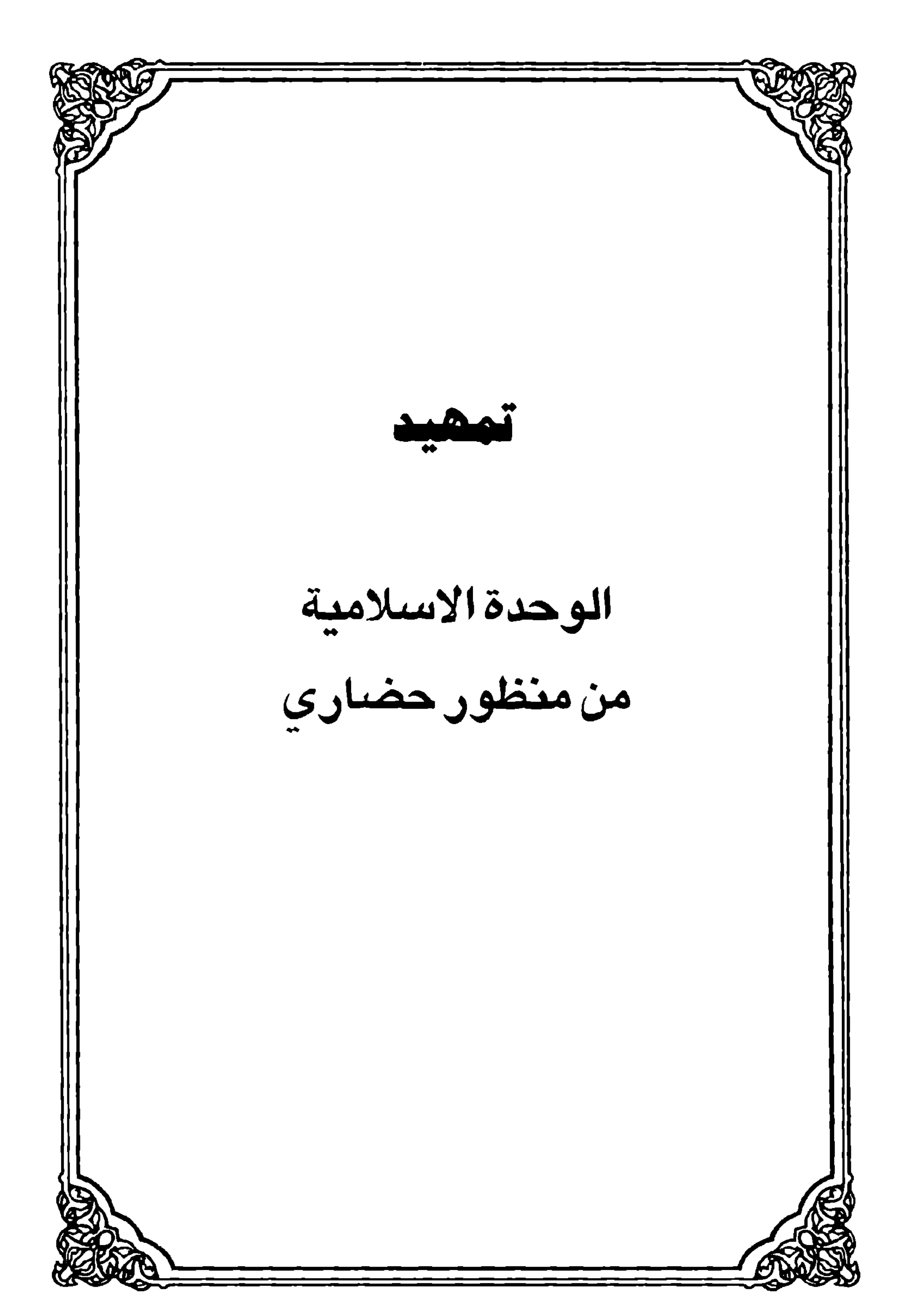
والمعاونية الثقافية للمجمع العالمي لاهل البيت عليهم السلام إذ تقدم هذا السفر الجليل إلى القرّاء الكرام ، تعدهم بأنها ستواصل طرح المزيد من هذه الدراسات البنّاءة ، مشاركة منها في التعريف بمعالم مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، وتقديم أُطروحتهم المثلىٰ المسلمين نحو العدل والقسط ، وإنقاذ البشرية من الظلم والجور ، وإعلاء كلمة الله في الارض ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾[1].

صدق الله العلي العظيم والحمد لله رب العالمين .

المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

---

(١) الأنبياء : ١٠٥ .



تمهيد

الوحدة الاسلامية
من منظور حضاري

أهميّة الوحدة الإسلاميّة

لا شك أنّ الوحدة الإسلاميّة هي من أهم الموضوعات التي نواجهها في عصرنا الحاضر، والتي يجب أن نتناولها بالبحث والتمحيص، وتحديد المعالم الأساسيّة لها، ليتضح الموقف تجاهها بشكلٍ كامل، خصوصاً بعد وجود الكيان السياسي الإسلامي المتمثل بالجمهورية الإسلاميّة في إيران، ووجود النهوض الإسلامي الواسع، الذي جعل المسلمين يتوجّهون الىٰ وضع الحياة الإجتماعية لهم علىٰ أساس النظرية الإسلاميّة والمصالح الحقيقية للمسلمين، الأمر الذي أدّىٰ بعد عقدٍ من الزمن تقريباً الىٰ قيام دولتين الاسلاميتين أُخريين (السودان وافغانستان)، وحدوث صراعٍ واسع بين المسلمين والأنظمة الحاكمة في بلاد المسلمين التي لا زالت تتمسّك بمنهج الظلم والطغيان والتبعيّة والمصالح الأنانية الضيّقة، وتحرص علىٰ البقاء في مستنقع الحضارة الغربية، وتحمل جميع مشاكلها الاجتماعيّة والاقتصاديّة، بل القبول بالمظاهر الغربية، بعيداً عن العلم والتطور التكنلوجي، أوالعزّة والكرامة الإنسانيّة.

ويزداد الموضوع أهميةً، عند ما ننظر الىٰ الظروف العالمية، وطبيعة الصراع القائم في عالمنا اليوم، علىٰ المستوىٰ الحضاري والاجتماعي

والاقتصادي بعد سقوط المعسكر الاشتراكي وانهياره، وخروجه من محاور الصراعات الإنسانية الأساسيّة، حيث يُلاحظ أنَّ الإتجاهات الجديدة لرياح الحرب البرادة تعطي لموضوع الوحدة الإسلاميّة أهميّة خاصة في هذه المرحلة من التطور الحضاري.

اتجاه رياح الحرب الباردة

لقد تحوّلت رياحُ الحرب الباردة بسقوط المعسكر الاشتراكي الىٰ اتجاهين رئيسيين:

الأول: اتجاه الإنكفاء على الذات ـ إذا صحّ هذا التعبير ـ حيثُ نجد الحضارة الغربيّة بسبب انتهاء المواجهة ذات الوتيرة والمستويات العالية مع المعسكر الاشتراكي، وعدم وجود ذلك المستوىٰ من المخاطر والمخاطر والمحفزات للدفاع عن النفس، التي كانت تجعل القوّامين علىٰ هذه الحضارة يغضّون الطرف ـ سابقاً ـ عن الإهتمام بمشاكلهم الداخلية الإنسانية المعقّدة، ليُولوا الصراع والمواجهة والخطر العسكري والعقائدي والسياسي مع الأعداء الخارجيين، القدر الأكبر من الإهتمامات، كلّ هذا التطور سوف يؤدّي الىٰ أن ينكفأ الغربيون علىٰ أنفسهم في الإهتمامات الداخلية، والصراعات والتنافس غير الشريف بينهم، من أجل المصالح الذاتية الضيقة.

وهنا ترشّح التوقّعات بعض المحاور الأساسية للصراعات الذاتية:

أ ـ الصراع الأُوربي الأمريكي، لا علىٰ المستوىٰ العسكري ولا العلمي، حيثُ بلغ التنافس في هذين الميدانين الىٰ القمّة ثم الطريق المسدود، بل علىٰ

مستوىٰ الحرب الاقتصاديّة ، والمزيد من الترف والرفاه علىٰ حساب شعوبهم والشعوب الفقيرة .

وقد بدت في الأُفق بعض المؤشرات في هذا المجال سواءً في حرب الخليج التي حاول الامريكيون فيها الاستيلاء علىٰ مصادر النفط ، والهيمنة علىٰ هذه المنطقة الغنيّة من أجل أن يُمسكوا بزمام المبادرة في هذا المجال الحيوي والطاقة المؤثّرة في جميع اقتصاديّات العالم ، وكذلك في قضيّة فرض الرسوم علىٰ الصادرات الزراعيّة الاوربيّة الىٰ الولايات المتحدة الأمريكيّة ، بعد أن رفض الاروبيون أن يُلغوا الدعم الزراعي الذي يقدمونه للمنتوجات الزراعيّة في بلادهم للمحافظة علىٰ انخفاض الأسعار، وكذلك في نتائج الإنتخابات الأمريكية الأخيرة[1] التي كان العامل المؤثّر فيها هو الإهتمامات الداخلية الاقتصادية والاجتماعية ، بعد الاضطرابات الواسعة التي شهدتها بعض الولايات الأمريكية في العامين الماضيين ، وتنامي خطر المخدّرات والأمراض الفتّاكة التي هي وليدة التفسخ الأخلاقي ، والغرق في مستنقع الشهوات والتحلّل غير المحدود ، وفي مقابل ذلكالسعي الأُوربي للوحدة الاوربيّة ومعاهدة (ماستريخت) والمشاكل الاقتصادية التي أحدثتها لبعض البلدان الأُوربيّة فضلاً عن المشاكل الاجتماعية والإنسانية الأُخرىٰ التي

---

(١) انتخابات عام (١٩٩٢ م) التي فاز فيها «بيل كلنتون» مرشّح الحزب الديمقراطي علىٰ منافسه رئيس الجمهورية «بوش» مرشح الحزب الجمهوري ، بعد استمرار الإتجاه السياسي لصالح الحزب الجمهوري لمدة اثني عشر سنة ، هي فترة بداية النهوض الإسلامي وحتىٰ الآن مع أنَّ «بوش» حقّق ا نتصاراً كبيراً ـ كما يدّعى ـ في حرب الخليج ، والعامل في فوز المرشح الديمقراطي كما يقال هو الاهتمام بالأوضاع الاقتصادية ومعالجتها .

تواجهها أُوربا وأمريكا في داخل شعوبها ، أوفي علاقاتها مع العالم الثالث .

ب ـ الصراع الغربي ـ الشرقي ، الّذي يدور الآن بشكلٍ واضح بين «الولايات المتحدة الامريكيّة» و«اليابان» ، واختلال التوازن التجاري بينهما، وبروز بعض الدول الشرقية مثل « كوريا الجنوبية» و«تايوان» في هذه المعادلة ، الىٰ جانب المشكلات الحادّة التي ولّدها انهيار «الاتحاد السوفياني» و«يوغسلافيا» الىٰ كلّ من هذين المحورين، واحتمال بروز العملاق الصيني الىٰ ميدان الصراع، أوانيهاره تبعاً للاتحاد السوفياتي ، الذي سوف يولدّ علىٰ كلا الحالتين مشكلات عميقة وواسعة في داخل الحضارة الغربيّة ، بعد أن أصبحت هذه الحضارة هي الرائدة والقدوة لكلِّ هذه المساحات ، مما سوف يسلِّط الضوء بشكل أفضل علىٰ طبيعة وحقيقة المشاكل التي تعاني منها هذه الحضارة .

الثاني: اتجاه الحرب الباردة لمواجهة النهوض الإسلامي بسبب تنامي الخوف من الصحوة الاسلامية .

إنَّ الصراع بين الحضارة الغربية والحضارةالاسلامية ليس صراعاً جديداً، بل هو صراع امتدَّ في عمق الزمن الىٰ قرون ، وكانت الحرب العالمية الأُولىٰ في أحد أبعادها المهمة ، هو تقسيم تركة الدولة الاسلامية الكبرىٰ المتمثلة بالدولةالعثمانية والاستيلاء أوالهيمنة علىٰ ما تبقىٰ في العالم الإسلامي ، وقد تحقق هذا الهدف للحضارة الغربية بعد الحرب العالمية الاولىٰ ، وبدأ العالم الإسلامي وكان قد استسلم عسكرياً وسياسياً للحضارة الغربية طيلة العقود الماضية منذ الحرب العالمية الأُولىٰ ، وإن بقيت بعض الزوايا والجيوب

والمنعطفات تشهد شيئاً من المقاومة ـ خصوصاً في مجالَي الفكر والثقافة ـ، ولكنَّ الواقع الذي كانت تعيشة البلدان الاسلامية طيلة هذه الفترة ، لم يكن واقعاً يتمثل فيه الصراع الشامل مع الحضارة الغربيّة ، بل ولا حتىٰ المقاومة الشاملة لها ، إذ أردنا أن ننظر الىٰ الساحة نظرةً عامّة وشموليّة ، نعم كانت هناك أعمال مجيدة وبطولية قام بها بعض علماء الإسلام والمفكرين المسلمين في مختلف أنحاء العالم الإسلامي في الدفاع عن الإسلام ، وكان لها دور عظيم بعد ذلك في استمرار المقاومة وإحياء روحها ، ومن ثمَّ تصعيد المواجهة مع الحضارة الغربيّة .

وقد حدث تحول عظيم في الأوضاع السياسيّة والثقافيّة للعالم الإسلامي بعد قيام الثورة الإسلاميّة في إيران ، وتأسيس الحكم الإسلامي فيها ، حيث انتشرت روح المقاومة والتصدي والنهضة في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، بل وفي صفوف المسلمين المغتربين ، والذين كان يبدوللناظر لأول وهلة أنّهم تحولوا في جميع أبعاد حياتهم ووجودهم الىٰ جانب الحضارة الغربيّة .

وهنا حاول القيّمون علىٰ الحضارة الغربيّة أن يعالجوا هذه الظاهرة بالطريقة التي عالجوا وواجهوا بها ظاهرة النهوض القومي والوطني ، وحركة التحرر في العالم العربي والإسلامي ، ومن دون الحاجة الىٰ التحول الىٰ الحرب الباردة في مواجهة عالمية شاملة ، فكانت الحرب العدوانيّة علىٰ الجمهوريّة الإسلاميّة ، والتدخل الأجنبي الواسع في منطقة الخليج، والحصار الاقتصادي والسياسي والتكنولوجي للجمهورية الإسلامية ، ثمَّ حرب الخليج ضد النظام العراقي لاخراجه من الكويت ، والتواجد العسكري فيه ، وكذلك ممارسة

الضغوط المستمرة لانهاء المشكلة الفلسطينية لصالح الهيمنة الصهيونية ، وإثارة المخاوف والشكوك ضد الجمهوريّة الإسلاميّة ونواياها المستقبليّة وعمليّات القمع الواسعة للنهوض الإسلامي تحت شعار محاربة الارهاب والتطرف الديني والتخلّف الحضاري ، وإحياء أُسلوب التحالفات الجانبيّة ، بعيداً عن الأُطر العامّة للجامعة العربيّة ، أومنظمة المؤتمر الإسلامي أوحركة عدم الإنحياز ، بل وحتى أبعد من ذلك في محاولة تسخير الأُمم المتّحدة ومؤسساتها خصوصاً في مجال حقوق الإنسان ، لتحريض بعض الأنظمة في العالم الإسلامي للقيام بالمزيد من الانتهاك لحقوق الإنسان ضد شعوبها تحت هذه الشعارات.

ويبدوحتىٰ الآن أنَّ هذه المحاولة باءت بالفشل ، وبدأ الصرع يأخذ أبعاداً جديدة في المواجهة مع الحضارة الغربيّة ، يمكن أن نؤشر فيها علىٰ عدة نقاط ذات تأثيرٍ كبير في هذا الصراع :

أ ـ ارتفاع درجة حساسيّة الأُمّة تجاه محاولات الحضارة الغربيّة في الانتقاص من الإسلام والعقيدة الإسلاميّة ، وازدياد الشعور بالمظلوميّة من قبل الحضارةالغربيّة من ناحية ، والاعتزاز بالكرامة الاسلامية وقيمها ومثلها من ناحية أُخرى ، وقد تكشّف هذا الأمر في قضيّة المرتد «سلمان رشدي» والتي تبدوفي البداية أنَّها قضية عاديّة ، ولكنَّ الغربيين في توجيههم للصراع، حوَّلوها الىٰ قضيةٍ ذات أبعاد عالميّة كشفت في تفاعلاتها عن عمق جذور الصراع الحضاري الغربي، الإسلامي ، فالغربيون يسمحون لأنفسهم أن يحوِّلوا بمحاكمة المتهمين بارتكاب الجريمة ، وهي جريمة في حقٍّ جماعة من

الركّاب المدنيين العاديين ، ولكنّهم لا يسمحوا بمحاكمة شخصٍ ارتكب جريمة بحق الإسلام والأُمة الإسلاميّة جمعاء ، ولا يسمحوا بمحاكمة وإصدار الحكم الذي تقرّه الشريعة الاسلامية ، وجميع الأديان السماويّة .

ولكنَّ المهم في هذه القضية ليس هذا الجانب ، بل في ما تكشفت عنه من مدىٰ ارتباط المسلمين بالإسلام والثقافة الإسلاميّة ، واستعدادهم لتوحيد موقفهم في الصراعات ذات البعد المركزي[1] ، وكذلك في بُعد الإجماع الإسلامي في هذه القضيّة علىٰ مستوىٰ الأُمّة وحتىٰ دول العالم الإسلامي ، حيث لم يجرؤ أيُّ واحدٍ من حكّام المسلمين أن يقف موقف المخالف لها . في جانب آخر مهم هو موقف المسلمين المغتربين ، وحتىٰ المولودين في الغرب منهم ، والذي كان في قوته لا يقل عن موقف مسلمي العالم الإسلامي إن لم يكن أشدّ وضوحاً .

ب ـ التراجع الحضاري والسياسي للحضارة الغربيّة واطروحاتها واتباعها في العالم الإسلامي أمام التطورات السياسيّة في تيّار النهوض الإسلامي الذي لا نحتاج الىٰ الحديث الواسع فيه ، وخصوصاً ما حدث في «جمهورية السودان الإسلامية» أوفي «جمهوريّة أفغانستان» ، حيث تمكّن التيّار الإسلامي من خلال صراع طويل ، وفي أبعاد متعددة أن يكسب الجولة ويقيم الحكومة الإسلاميّة ، تحت سمع وبصر الحضارة الغربيّة والأنظمة التابعة لها ، بما تملك من امكانات وقدرات ماديّة وبشريّة ، وكذلك الصورة الرائعة والمروعة التي

---

(١) لأنَّ هذه القضيّة كانت تمس واحدة من أهم وأكبر القضايا الإسلاميّة التي يجمع المسلمون علىٰ الإلتزام بها ، وهي قضيّة النبي محمّد ﷺ .

حصلت في «الجزائر» من إدلاء الأُمّة برأيها ، وفي مباراة مفتوحة ، وعلىٰ الطريقة الغربيّة في الإختيار الىٰ جانب الحكم الإسلامي والنهضة الإسلاميّة .

ج ـ ازدياد الشعور لدىٰ اتباع الحضارة الغربيّة ومنظّريها ، بالعجر واليأس بالرغم من سعة دائرة التآمر والتوظيف للامكانات والقدرات حيث يعبر عن ذلك طبيعة ردّ الفعل الغربي بشكل مباشر أوعن طريق «الأتباع» من خلال تصعيد وتيرة القمع في العالم الإسلامي في عصر النظام الجديد ، الذي ينادي بالدفاع عن حقوق الإنسان ، ويرفع شعار تهدئة مناطق التوتر والاضطراب وحلِّ المشكلات الاقليمية المستعصية والخروج من مخلفات الحرب الباردة الىٰ الأوضاع السلميّة ، والأمن السياسي والاجتماعي .

إنَّ ما حصل في بلدان مثل «أفغانستان» ، و«فلسطين» ، و«العراق» ، و «الجزائر» ، و«مصر» ، و«تونس» ، وغيرها في محاولة للقضاء علىٰ النهوض الإسلامي وعدم التمكّن من ذلك حتىٰ الآن ، بالرغم من استخدام جميع الوسائل الممكنة والمتيسّرة ، حتىٰ الأسلحة الكيميائية وحرب الإبادة ، ثم محاولة إلصاق التهم بالعوامل الخارجيّة كايران والسودان ، أواطلاقها بشكل عشوائي كتهم التطرف والإرهاب ..كلّ ذلك يدلل بوضوح علىٰ حقيقة هذا الشعور بالعجز وفشل الأُطروحة الغربية وأنظمتها الهزيلة .

د ـ تطور الخطاب السياسي الإسلامي بشكل واضح من خلال ما طرحته الثورة الإسلامية في إيران ، من خطاب إسلامي أصيل يهتمُّ بالكرامة الإنسانية ، كما يهتم بكرامة الله والرسول والدِّين ، وبالحياة السياسيّة والاجتماعية والاقتصادية للإنسان ، كما يهتمّ بالشعائر والآداب الاسلامية ، وبالعلم

والفضيلة ، ومعالجة المشاكل الإنسانية ،كما يهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

إنَّ هذا التطوير للخطاب السياسي ، والتأكيد علىٰ البُعد الحضاري الأصيل في الإسلام ، هو الذي جعل هذا النهوض الإسلامي صامداً أمام عمليات القمع والإستئصال ، بل ومتعالياً عليها ، وانَّ تخلّي الدولة العثمانية عن هذه الهموم الحقيقيّة للإنسان هو الذي جعلها تتراجع وتتداعىٰ بعد ذلك أمام الضربات التي واجهتها من قبل الحضارة الغربيّة .

إنَّ شعور الأنظمة في العالم العربي والإسلامي بالعجز أمام حلِّ مشكلاتها الداخلية الاجتماعيّة والسياسيّة ، وبالتالي عدم قدرتها علىٰ مواجهة النهوض الإسلامي ، هو الّذي أعطىٰ هذا المؤشر الجديد للصراع ، حيث بدأ القوامون علىٰ الحضارة الغربيّة يشعرون بالخوف من نتائج هذه المواجهة الجديدة ، ويدركون الأخطار التي تهدد مفاهيمهم ومصالحهم في المنطقة ، بحيث يجعلهم يصعدون من حدّة القمع ، والإضطهاد ، والعدوان ، وعمليات التضليل، ويؤشرون علىٰ محاور وخلفيات هذا الصراع الإسلامي الغربي .

إنَّ هذه الأحداث ترشّح النهضة الإسلاميّة أن تكون المحور الحضاري الجديد في الصراع مع الحضارة الغربية ، وبأساليب وإمكانات جديدة، قد لا تخطر علىٰ بال المحللين والدارسين الغربيين .

مستلزمات الموقف الإسلامي في الصراع

ولكن السؤال المطروح علىٰ المسلمين في هذا المجال هو أين تكمن المستلزمات الحضاريّة والمادية للوقوف في مواجهة هذا الصراع ؟

ويمكن تقديم صورة عامّة عن الجواب من خلال ملاحظة الأبعاد الثلاثة الآتية التي تشكل بمجموعها هذه المستلزمات الأساسيّة في تشخيص الموقف لهذه المواجهة من وجهة نظر اسلاميّة .

أ ـ مواجهة التحديات المعاصرة

ولهذه التحديات ابعاد حضارية وسياسية واجتماعية أفرزتها ظروف العصر الحديث ، وتطوراته ، في جوانبها الإنسانية والمدنيّة والعلمية ، ومنها بالذات إفرازات الحضارة الغربيّة ، والهيمنة العالمية لها ، خصوصاً بعد تراجع الحضارة الغربية وانهيار المعسكر الاشتراكي ، حيث يمكن أن نشير الىٰ بعض هذه التحديات والقضايا :

الأولى : قضية التوفيق بين متطلبات الحرية الانسانيّة علىٰ المستوىٰ الفردي ، أوالاجتماعي والإستقلال والإرادة في القرار السياسي ، والتحرر من الهيمنة أوالتبعيّة الأجنبيّة ، في الاقتصاد والثقافة والعلوم من ناحية ، ومتطلبات العدالة الاجتماعية والرفاه الاقتصادي والتعايش السلمي من ناحية أُخرىٰ . فإنَّ هذه الأُمور وإن كانت قد تبدومتجانسة في النظرة الأُولىٰ لها ، ولكنَّ التوفيق بين متطلباتها وضمان تحقيقها عملياً وواقعياً في الحياة الإنسانية المعاصرة

والمتداخلة ، يحتاج الىٰ جهد حضاري وسياسي وبذل تضحوي استثنائي ، والىٰ روح معنوية عالية ، خصوصاً وانَّ الحضارة الغربية لا زالت تزداد جفافاً وتصحّراً في معالجتها للمشكلات الإنسانية ، بسبب فقدانها للعنصر الروحي ، والعلاقة بعالم الغيب ، والإرتباط بالله تعالىٰ ، الأمر الذي لا يمكن معالجته الّا من خلال الرسالة الإسلاميّة التي تمثّل بتكاملها الحلّ الصحيح لهذه المشكلات.

فقد كان أحد الأسباب الرئيسية لسقوط الشيوعية التي نادت بالعدالة الاجتماعية ومعاداتها للفطرة الانسانيّة ، وخصوصاً الاتجاه الفطري للإيمان بالله ،كما أنّ أحد أسباب ظهور الرأسماليّة التي نادت بالحريّة ، هو الفراغ الذي كانت تعيشه المسيحيّة في معالجتها للتطور العلمي والاجتماعي ، ولا يمكن معالجة هذه التناقضات الّا من خلال رسالة الدِّين التي تعالج المشكلات الانسانيّة ،كالحريّة والعدالة الاجتماعية والمسألة الروحية ، الىٰ جانب العلاقة بعالم الغيب ، وهذه هي خصوصية الرسالة الاسلامية .

ومن هنا يبدوالتحدي الجديد في معالجة مشكلة العدالة الاجتماعية ، لأنَّ المجتمع الانساني بعد سقوط أسطورة الاشتراكيّة العلميّة (الشيوعيّة) كاطروحة لتحقيق العدالة الاجتماعيّة والمساواة والقضاء علىٰ مظاهر التمييز بين طبقات المجتمع ، والغاء معالم الظلم والإستئثار والإستغلال الذي مارسته الرأسماليّة الديمقراطية تحت شعار الحريّات العامة والفردية ، وتحقيق التطور من خلال استنفار وتوظيف الدوافع الذاتية ، والمصالح الخاصّة ... بعد كلِّ هذا تبرز الآن أخطار عظيمة في طغيان الظلم والإستغلال وبأشكال جديدة ، وليس

علىٰ حساب مجموعات وشرائح اجتماعية فحسب ، بل علىٰ حساب شعوب وأُمم بشريّة بكاملها ، ومن خلال النظام العالمي الجديد الذي أصبحت «أمريكا» وحلفاؤها فيه ، هي القوة الوحيدة التي تحاول الهيمنة علىٰ العالم .

الثانية : قضيّة الصراع بين الإستكبار والإستضعاف حيث لابدَّ للحالة الإسلاميّة أن تتحول من حالة الدفاع وامتصاص الهجمات المتوالية التي تشنها قوىٰ الإستكبار العالمي ضدَّها باعتبار أنَّ الحالة الإسلامية كانت تعيش ضمن دائرة ومساحة الإستضعاف العالمي ... لابدَّ لها من التحول الىٰ حالة المبادرة ، وتقديم الأُطروحات المناسبة لحل مشكلات الإنسان ، أوالوقوف علىٰ الأقل في المواجهة مع الإستكبار دفاعاً عن كلِّ مستضعفي العالم الّذين سوف يقعون ـ بطبيعة الحال ـ لقمةً سائغة هينة في يد الإستكبار العالمي المتفرد ، إذ لا يوجد مَن يدافع عن حا لة الإستضعاف غير الأُمة الاسلامية والحالة الاسلامية .

الثالثة : قضية النظام العالمي الجديد الذي أصبح حقيقةً قائمة من خلال التطور العلمي والمدني ، والعلاقات الانسانيّة الجديدة ، وبالتالي فلابدَّ من بناء هذا النظام وتطويره باتجاه التكامل الإنساني ، وخدمة المسيرة المتطورة للبشريّة .

إنّ وجود نظام إنساني واحد للبشرية جمعاء هدف مقدَّس وأمل كبير تعيشه البشريّة ، منذ العصور الأُولىٰ للتاريخ ، وقد بشَّرت به الرسالات الإلهيّة، ولذا فمن الضروري أن يتمَّ التحرك بهذا الإتجاه ، ولكن بشكل تكاملي يحقق أهداف البشريّة في تكاملها ، من خلال ارتباطها بالله سبحانه وتعالىٰ ، والتزامها بعهودها ومواثيقها ، وتجسيدها لفطرتها الأصلية ، وحبّها للخير

والعدل والصلاح والرقي والتقدم والإستقرار والأمن ، والعلاقات الإنسانية التي تسودها المحبة والود .

وعلىٰ أساس هذا التطور نجد الحاجة الملحة الىٰ أن يقوم علماء الإسلام ، والمفكرون ، وقادة الحركات الإسلامية ، وغيرهم من حواري هذه الأُمّة بحملة تعبويّة واسعة ، علىٰ المستوىٰ السياسي والإعلامي والثقافي ، لطرح نظام عالمي جديد متكامل ، يقوم علىٰ أساس العقيدة الإلهية ، ومبادئ الإسلام الحنيف ، المستنبطة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، يخاطب البشرية جمعاء ، ويحلّ مشكلاتها ، ويملأ فراغها وخواءها ، ويطلب منها الإيمان به والإلتزام بأُسسه وقوانينه ، ولابدَّ أن تبذل الجهود الخيِّرة والتضحيات الكبيرة من أجل إيصال هذا البلاغ ، وهذه الدعوة العالمية للبشرية كلِّها ، وعندما نتحدث عن هذه الجهود والتضحيات والدعوة والبلاغ، لابدَّ أن نضع أمام أعيننا مسيرة الأنبياء والربانيين والأحبار والعلماء والصدّيقين في التاريخ الالهي ، وخصوصاً مسيرة سيد الأنبياء ﷺ والتي تحدَّث عنها القرآن الكريم كثيراً ، فإن مثل هذه المسؤولية الكبيرة ، لا يمكن أن تتحقق أهدافها ، الّا من خلال هذه الجهود والتضحيات .

إنَّ هذه القضية تمثل قضية من أهم التحديات المعاصرة التي يواجهها الإنسان المسلم ، وتواجهها الحالة الإسلامية ، وتكتسب أولوية في مجمل الحالة الإسلامية .

كيفية معالجة هذه التحديات

وبعد هذا الاستعراض للتحديات يبرز أمامنا هذا السؤال :كيف نعالج هذه التحديات الحضاريّة ؟

ويأتي الجواب علىٰ ذلك من خلال قضية الوحدة الإسلامية الّتي وضع أُسسها القرآن الكريم ، وعالجها أهل البيت عليهم السلام من خلال نظريّة سوف نشير الىٰ معالمها في بحث قادم ، ولكن بصورة إجمالية نجد أنَّ هذه المعالجة تأخذ بعدين رئيسيين : البعد النظري والبعد العملي وقد أشرت الىٰ البعد العملي في الأسطر الماضية ، من خلال الإقتداء والتأسي بمسيرة الأنبياء والربانيين والصالحين.

وأما البعد النظري فيمكن أن نجد معالمه في الحرية الفكرية والسياسية التي تبنتها نظرية أهل البيت عليهم السلام في الوحدة الإسلامية ، حيث يمكن علىٰ المستوىٰ الفكري العودة الىٰ دراسة المصادر والمنابع الإسلامية ، والتعرّف علىٰ عناصر القوّة فيها ، واستنطاق هذه المصادر للجواب علىٰ المشكلات الأساسيّة ، ضمن القوانين والضوابط الشرعيّة ، وفتح باب الاجتهاد الصحيح ، ونفض غبار الماضي عن النصوص الإسلامية ، وكذلك فسح مجال الممارسة السياسيّة الحرّة المقننة والمشروعة علىٰ المستوىٰ الإجتماعي والإتصاف بسعة الصدر في فهم واحترام آراء العلماء من جميع المذاهب الإسلاميّة ، ونظرياتهم ودراستها بشكل موضوعي ... فإن كلَّ ذلك أُمور ضروريّة في مواجهة هذه التحديات الحضاريّة .

ب ـ تطوير المضمون المعنوي للحالة الاسلامية

لا شك أنَّ المضمون المعنوي العقلي والعاطفي الذي تملكه الحالة الإسلاميّة ، يمثل أعظم طاقة وأكبر قوة تمتاز بها الحالة الإسلامية ، في موقفها العام تجاه هذا الصراع الحضاري ، لأنَّ الإيمان بالله تعالىٰ وبالرسالة واليوم الآخر ، والمضمون الأخلاقي والتشريعي ومشاعر الحب والولاء لله تعالىٰ ، والعداء للشيطان وكل معالم الشر ، والخوف من العذاب ، والأمل في الفوز بالجنّة والأهداف السامية النبيلة المتمثلة بالرضوان الأكبر ، هو القوة الحقيقية التي تتنزل عليها الملائكة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[١] .

وبذلك يصبح هذا المضمون المعنوي والروحي أهم بعدٍ في مستلزمات الموقف في هذه المواجهة ، ومن هنا يكون تطوير هذا المضمون وتصعيده والارتفاع به أهم قضية في هذا المجال .

ولا شك أنَّ تعميق حالة الإيمان بالله تعالىٰ ، والشدّ الروحي والعاطفي للإنسان المؤمن بالله وبالرسالة والرسول واليوم الآخر تأتي في مقدمة أبعاد هذا التطوير ، وهذا الأمر يحتاج الىٰ منهج للعقيدة وللتزكية والتربية النفسيّة والروحيّة .

---

(١) فصلت : ٣٠.

التمييز بين العقل والعاطفة

وهذا المنهج التربوي للتزكية نجد معالمه في نظرية أهل البيت عليهم السلام في التزكية، وهو جانب مهم في معالجتنا لقضية الوحدة الإسلاميّة، ولكن الشيء الذي قد نغفل عنه في فهمنا لهذا المضمون الروحي، هو قضية العقل والعلم والتمييز بينهما وبين العاطفة والشعور.

إننا بلا شك بحاجة الىٰ العاطفة والمشاعر الجيّاشة المتسمة بالحب والولاء لله تعالىٰ ولرسوله وللمؤمنين، وهذه العاطفة تعتبر الطاقة الحركيّة الدافعة، والشعلة السرمديّة التي لا تنضب، ولكنَّ المواجهة الإسلامية بحاجة في نفس الوقت أيضاً الىٰ منهج عقلي وعلمي في التخاطب والعمل والمواجهة، كما هي بحاجة الىٰ العواطف والمشاعر، بل إنَّ هذه العواطف والمشاعر إذا أُريد لها الاستمرار والبقاء والثبات، فلابدَّ أن تقوم علىٰ أساس عقلي وعلمي، وبالتالي فلابدَّ من تصعيدها من الحالة العاطفية والشعورية الىٰ المستوىٰ العقلي والعلمي.

وهذا الأمر ـ بالإضافة الىٰ أنَّ النظريّة الإسلاميّة تؤكده وتدعمه حيث دعىٰ القرآن الىٰ التدبّر والتعقّل والعمل بمنهج العلم والحجة ـ تفرضه طبيعة التطور التاريخي لمسيرة البشرية التي بدأت تتحول الىٰ هذا المنهج، ولابد لها أن تستقرَّ عليه في المستقبل، وهذا ما يفسر لنا ظاهرة إتصاف الرسالة الإسلاميّة بالرسالة الخاتمة، لأنَّ البشرية وصلت في تطورها الإنساني الىٰ مستوىٰ الإعتماد علىٰ العقل والعلم من ناحية، والرسالة الإسلاميّة هي رسالة

العقل والعلم ، والمنهج الذي يمكن للإنسان أن يُفهمه في كلِّ أدواره المستقبلية من ناحية أُخرىٰ .

إذن فهناك حاجة الىٰ المناهج العلميّة والعقليّة في التعبير عن مواقفنا ، ولابدَّ من الصعود بالحالة الإسلاميّة من حالة مجرَّد ردِّ الفعل والإنفعال تجاه العهود الطويلة لإضطهاد الإسلام والمسلمين ، والعدوان علىٰ القيم الإسلاميّة ، ونهب ثروات الإنسان المسلم ، واستغلال الإنسان في العالم الإسلامي ... الىٰ غير ذلك من أسباب الظلم والضيم الذي يثير في الإنسان مشاعر الحقد والمقت والثورة والرفض والتحدي .

بل لابدَّ من تحويل الحالة الإسلاميّة الىٰ حالة الفعل الذي يتسم بالثبات والتطور ، وضمن الصيغ العلميّة والعقليّة في التحليل والتخطيط والبرمجة ، ووضع الحلول لتشمل كل مجالات الحياة المهمّة ، ونقاط التماس الساخنة ، وقضايا الصراع والإضطراب الاجتماعي ، والّتي يمكن أن نشير الىٰ بعضها في النقاط التالية :

١ ـ الرؤية والبرنامج الاقتصادي الواضح ، الذي يكون قادراً علىٰ توظيف ثروات الأُمّة واستثمارها ، وتعبئة طاقاتها الواسعة والكبيرة ، وحلّ مشاكلها الاجتماعية والفرديّة ، وتحقيق الرفاه المعيشي ، والإستقلال الاقتصادي، والتوازن التجاري ، والوفرة في الإنتاج والعدالة في التوزيع ، والتكافل الاجتماعي ، وحفظ القدرة علىٰ المواجهة الحضاريّة .

٢ ـ الخطّة والبرنامج الاجتماعي الذي يكون قادراً علىٰ معالجة قضايا الشباب والمرأة والأُسرة بشكلٍ خاص ، وتأثيرات التطور العلمي والمدني

علىٰ الأوساط الاجتماعيّة ، والإستفادة من هذه الطاقات الهائلة في خدمة التنمية ، والإبتعاد بها عن مساقط الإنحراف والتبعيّة والشهوات ، وتحقيق حالة الإنسجام بين تطلعاتها وأحاسيسها ، والصيغ الإنسانيّة والشرعيّة والمثل والقيم الإلهيّة .

٣ ـ البرامج الثقافيّة والروحيّة الّتي تكون قادرة علىٰ مواجهة تطورات الفكر الإنساني ، وتطلعاته نحو الغيب والمجهول ، من خلال التقدّم العلمي وفرص الدراسات العلميّة المعمّقة ، والامكانات الهائلة في المعلومات والإحصاءات والوسائل ، وبالتالي مواجهة التيّارات الثقافيّة الأُخرىٰ ، التي تعتمد بشكلٍ أساسي علىٰ عناصر الشيطان والهوىٰ وإثارة الغرائز والشهوات وسيطرة الملذات والمنفعة الشخصيّة .

إنَّ تقديم مثل هذه الرؤية العلميّة ، والّتي تعتمد علىٰ مخاطبة العقل الإنساني ، وتربية إرادته والجانب الروحي والمعنوي فيه ، هو المنهج النظري السليم الّذي لابدَّ للحالة الإسلامية أن تقدمه للمجتمع الإنساني في هذه المواجهة .

ج ـ الوحدة الإسلاميّة

تعتبر الوحدة الإسلاميّة من أهم مستلزمات الوقوف في وجه هذا الصراع الحضاري ، الّتي يجب علىٰ المسلمين جميعاً ، والحركة الإسلاميّة بشكلٍ خاص الإهتمام بها وتوفير ظروفها ، وتبيين مناهجها وأساليبها ، والعمل علىٰ تحقيقها ، بل يمكن أن نقول إنّها الأرضية والقاعدة الّتي يمكن أن تقوم عليها

جميع المستلزمات ، ولا شك أنَّ الرغبة الأكيدة في نفوس المسلمين ، والأمل الكبير الذي يعيشه أبناء الامّة الإسلامية لتحقيق الوحدة ، يشكل أفضل أرضيّة يمكن أن يُقام عليها بناء الوحدة الإسلامية ، حيث تتطلّع الأُمة بايجابية لإقامة هذا البناء .

كما أنَّ أعداء الإسلام والأُمّة الإسلاميّة ، يعملون باستمرار من أجل التركيز علىٰ نقاط الخلاف ، وإبراز معالم التناقض والفرقة بين أبناء الأُمّة ، بل يضعون العدسات المكبّرة في كثير من الأحيان ، ويطلقون الأصوات المنكرة، ويملؤون الدنيا ضجيجاً من أجل تأكيد ذلك .

كلّ هذا يؤكد حقيقة لابدَّ من الإهتمام بها في مسألة الوحدة ، وهي تحويلها من حالة الشعار والعواطف والمشاعر الجياشة الىٰ عمل هادف له «مبرراته» و«مجالاته » الواضحة ، لأنَّ الوحدة الإسلاميّة ليست مجرد رغبة أكيدة ، وأمل كبير فحسب ، بل هي عمل واجب من الناحية الشرعيّة والإسلاميّة ، وفي نفس الوقت ضرورة من ضرورات الحياة الإسلاميّة ، وشرط من شروط القدرة علىٰ المواجهة في الصراع الحضاري .

ومن هنا فسوف نتناول «المبررات» و«المجالات» بشيء من التفصيل والتحليل .

أ ـ مبررات الوحدة الإسلاميّة

وعندما نطرح موضوع مبررات الوحدة الإسلاميّة يمكن أن نشير الىٰ نقاط ثلاث :

الأُولىٰ : إنَّ الوحدة الاسلامية توفر القدرة الحقيقيّة التّي يمكن أكن يستند اليها المسلمون في صراعهم الحضاري بعد الله سبحانه فإنَّ الأُمّة الاسلامية ، وإن كانت تملك طاقات بشريّة كبيرة وإمكانات ماديّة هائلة ، ومواقع ستراتيجية هامّة ، وروح معنويّة عالية ، وحضارة ، ونظرية عقائديّة ، وفكريّة متكاملة في نظرتها الىٰ الحياة، ولكن بدون هذه الوحدة بين أطرافها وأشلائها سوف تتحول ـ كما هي الآن ـ الىٰ مجرَّد فريسة للأعداء الذين يملكون كلَّ هذه الإمكانات الماديّة والشيطانيّة الكبيرة والهائلة ، ويمدهم رصيد من الهوىٰ والرغبات والشهوات ، وحب الجاه والسلطان قائم في نفوس الضعفاء المظللين الشرسين ، أو تتحول الأُمّة الىٰ إفراغ طاقاتها في الصراعات الداخلية أو الجانبية بعيداً عن الأهداف الحقيقية لها .

الثانية : إنّ الوحدة الإسلامية يمكنها أن توفر فرصاً كبيرة وواسعة للبحث والتقصي والإجتهاد والإستنباط للنظرية الإسلاميّة بما يخدم مواجهة التحديات الفكرية والنظرية ، ومعالجة المشكلات الإنسانية التي خلفتها الحضارة المادية والتطور العلمي والمدني ، فإن مثل هذا التطور في الأبحاث والدراسات والفهم ، إنّما يمكن أن يحصل في ظل الإستقرار والتفاهم وحرية الرأي واحترامه ، وتكامل الجهود بعضها الىٰ جانب البعض الآخر.

الثالثة : إنَّ الوحدة الاسلامية يمكنها ـ أيضاً ـ أن توفر فرص التطور والنمو في العالم الإسلامي ، علىٰ المستويين المادي بجميع أبعاده ، والمعنوي، وبذلك يمكن للنظرية الاسلامية أن تثبت من خلال تحقيق المنوذج الاجتماعي الإسلامي القدوة ، والتطور القادر علىٰ حلّ المشكلات الاجتماعيّة، فانَّ التكامل الاقتصادي والسياسي والثقافي والروحي والاجتماعي بين أطراف الأُمّة الإسلاميّة وإمكاناتها المتوزّعة سوف يحقق ذلك الىٰ حدٍ بعيد .

وبذلك يمكن للوحدة الاسلامية أن تساهم في خدمة الإنسانية والتطور الحضاري للبشرية جمعاء ، في نفس الوقت الذي تحقق فيه أهدافها علىٰ مستوىٰ الأُمّة الإسلاميّة .

ب ـ مجالات الوحدة الإسلامية

ومن أجل اكمال الصورة في الوحدة الإسلامية ، لابد أن نتبيَّن منذ البداية أنَّ المقصود من الوحدة الاسلامية ليس هو تحويل جميع النظريات العقائدية، والإجتهادات الفقهيّة ، والآراء السياسيّة للمسلمين ، الىٰ نظرية واجتهاد ورأي واحد ، وإنّما المقصود من ذلك هو معالجة مجمل القضايا الأساسيّة التي تهم المسلمين ، بموقف واحد منسجم يحقق هذه «الوحدة» بينهم وبالتالي يوضح علىٰ أرض الواقع مبرراتها السابقة .

ويمكن تلخيص هذه القضايا في المجالات التالية :

الأول : النظرة الكليّة العامّة لدور الدين في الحياة الإنسانيّة ، وانَّه هل هو مجرَّد علاقة روحيّة والتزامات قلبيّة بين الإنسان وربِّه ، وممارسات عباديّة وسلوك أخلاقي يمارسه الإنسان ، أوأنَّ دور الدين أوسع من ذلك وأشمل ، بحيث يعالج الحياة السياسيّة للإنسان بأبعادها الإجتماعيّة والإقتصاديّة والإداريّة والعلاقات الإنسانيّة ... وكذلك دور الشريعة الإسلاميّة في تنظيم هذه الحياة .

وعندما نتحدث عن النظرة الكليّة لا نقصد بطبيعة الحال المواقف السياسيّة التفصيليّة التي تتخذها هذه الجماعة أوتلك ، فإنَّ ذلك يدخل في مجال الإجتهادات المتنوعة . ولا شك أنَّ هناك شبه اتفاق عام بين العلماء والمفكرين المسلمين حول هذه النظرية الكليّة ، بالرغم من الإثارات ذات

الطابع السياسي الّذي تصطنعه الإتجاهات السياسية للدول المعادية، أوالاشخاص الذين يقعون تحت تأثيرها السياسي.

الثاني : الموقف العام تجاه الحقوق الإنسانية العامة في الفكر والرأي والعمل السياسي، والممارسة العبادية للمسلمين، والحقوق المدنية لاتباع المذاهب الاسلامية في العالم الإسلامي، بحيث لا يجوز حرمان اتباع هذا المذهب أوذاك، من هذه الحقوق العامة، والتي يشتركون فيها مع بقية المواطنين المسلمين لمجرد انتمائهم الىٰ هذا المذهب أوذاك، وان لا يتحول عامل الانتماء المذهبي الىٰ امتياز أونقطة عيب أوضعف لصالح الأشخاص أوضدّهم.

الثالث : النظرة الكليّة تجاه أعداء الإسلام الأساسيين، سواء علىٰ المستوىٰ العقائدي مثل حركة الالحاد، والتحلل من الالتزامات الاخلاقيّة الفطرية، أوعلىٰ المستوىٰ السياسي كحركة الفكر العالمي المتمثلة بقوىٰ الهيمنة والتسلط والاستغلال القائمة علىٰ أساس المصالح والمنافع الماديّة، بعيداً عن جميع القيم والمثل الإنسانية، والمصالح والمنافع المتبادلة، وكذلك قوىٰ الصهيونية العالمية والصليبية الطائفية الحاقدة، التي تعمل ليل نهار في سبيل الكيد بالمسلمين، أونهب المزيد من أراضيهم وثرواتهم، انطلاقاً من الأحقاد التاريخية.

إنَّ هذه القوىٰ الشيطانية بما تملك من وسائل ماديّة للتضليل والاغراء، والامكانات السياسيّة والعسكرية والعلمية لممارسة مختلف الضغوط النفسية تمثل العدوالألد للمسلمين الذي يجب الحذر منه، وبالتالي لابدَّ من تشخيصه ومواجهة أساليبه وأضاليله النفاقيّة.

الرابع : الخلافات المذهبية التي لابدَّ من توحيد النظرة الكليّة، والمنهج

الذي يتم علىٰ أساسه التعامل معها ، فانَّه لا معنىٰ لافتراض الوحدة في هذا المجال علىٰ أساس توحيد المذاهب الاسلامية في مذهب واحد مشترك ، فان هذا المنهج في الوحدة غير واقعي ، بل هو غير منطقي ، وانما لابدَّ من وضع المنهج علىٰ أساس احترام آراء الآخرين من أصحاب المذاهب وممارساتهم العبادية والشخصية أولاً ، وتوحيد مناهج البحث وأساليب النقاش والنقد بعيدا عن النوايا والظنون والشبهات ثانياً .

وسوف نطرح في آخر هذا البحث المنهج الذي نراه صحيحاً وقادراً علىٰ معالجة موضوع الوحدة في هذا المجال .

الخامس : توحيد النظرة الكليّة الىٰ صيغة الحكم الإسلامي ، ودوره في الحياة السياسية والإنسانية ، بحيث لا يكون هناك تناقض في الصيغ المطروحة للحكم ،كما هو الحال في معالجة هذا الجانب في العالم الديمقراطي ، فانّه بالرغم من وجود صيغ متعددة في بلدان العالم الديمقراطي، ولكنها متفقة في أساسيات ومقومات النظرة الكليّة للحكم ، تشترك فيهاكل هذه الصيغ ، ويتفق عليها الديمقراطيون .

والنظرة الاسلامية من خلال تراثها الشرعي وتجاربها الطويلة ، قادرة علىٰ استيعاب الصيغ وتقديم المتعدد منها .

ولا شك ان الامة الاسلامية في مجال توحيد الموقف السياسي تحتاج الىٰ قيادة واحدة مركزية ، يمكن ان تبرز من خلال حركة الواقع العملي عندما تتوفر ظروف هذه الوحدة ، وتتحقق مستلزماتها .



الوحدة الإسلاميّة
من منظور قرآني

لقد تناول القرآن الكريم موضوع الوحدة والاختلاف بشكل واسع ، حيث تحدَّث عن ظاهرة الاختلاف في التاريخ الانساني ، وتناول أسبابها وعواملها ، وقدَّم العلاج لها ،كما تناول موضوع الوحدة وأُسسها ، والطرق والأساليب التي يمكن من خلالها الوصول الىٰ الوحدة والاتفاق ، والىٰ جانب الحديث القرآني عن ظاهرة الاختلاف في تاريخ البشرية ، تحدث أيضاً عن الوحدة والاختلاف في المجتمع الإسلامي ، وبالتالي عالج موضوع الوحدة بين المسلمين أنفسهم ، الذين كانوا يتعرضون الىٰ الاختلاف من خلال حركة المجتمع السياسية وتطوراتها ، أومن خلال فعل أعداء الإسلام ، والأُمة الاسلامية ، من المشركين والكفّار من أهل الكتاب ، وكذلك المنافقين الذين كانوا يعيشون في ضمن المجتمع الإسلامي ، ولكنَّهم ليسوا من المسلمين ، ولا من أهل الكتاب ﴿ **مَّا هُم مِّنكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ** ﴾[1].

فههنا بحثان :

الأول : ظاهرة الوحدة والاختلاف في التاريخ الانساني .

الثاني : الوحدة في المجتمع الإسلامي .

---

(١) المجادلة : ١٤ .

الفصل الأوّل

ظاهرة الوحدة والاختلاف في التاريخ الانساني

ومن خلال البحث في هذا الموضوع نرىٰ من الوضوح أنّه يمكن أن نقسمه الىٰ قسمين :

القسم الأول : الاختلاف والوحدة كظارة انسانيّة .

القسم الثاني : الاختلاف والوحدة بين الديانات الإلهيّة .

أمّا القسم الأول : فنحن نلاحظ من خلال القرآن الكريم أنَّ البشريّة كمجتمع بدأت متحدة في سلوكها وعلاقاتها ،كما نصَّ القرآن الكريم علىٰ ذلك في بعض المواضع :

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا

---

(١) البقرة : ٢١٣ .

فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾[١].

ويبدو أنَّ هذه الوحدة كانت تقوم علىٰ أساس قاعدة النظرة الانسانيّة التي أودعها الله سبحانه و تعالىٰ في الإنسان، و هيأه لهذه الخلافة الإلهيّة في الأرض والتي تتمثل بالعقل والعلم والارادة:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ... ﴾[٢].

وقد كانت الظروف الإنسانية والحياتية في البداية ملائمة لأن تأخذ هذه النظرة دورها في تحقيق هذه الوحدة واستمرارها، باعتبار بساطة الحياة الاجتماعيّة، وعدم وجود التعقيد في ظروفها، سواء علىٰ مستوىٰ حاجات هذا الإنسان ومتطالباته التي تفرضها عليه غرائزه وشهواته، أو علىٰ مستوىٰ الامكانات والقدرات التي يملكها هذا الإنسان، والتي تجعله غير قادر علىٰ بسط نفوذه والتوسع والامتداد ليشمل مساحات جديدة من الحياة الاجتماعيّة بحيث يؤدي الىٰ دخوله في التناقض مع المساحات الأُخرىٰ، أو علىٰ مستوىٰ المعرفة والفهم للوسائل والأسباب التي تخلق له أنواعاً جديدةً من الآفاق والطموحات والأهداف والمقاصد، ويمكن أن نتصور هذه المرحلة الأولىٰ من الحياة الانسانيّة التي كانت تتحكم فيها الفطرة وتسيرها في ظل الظروف

---

(١) يونس: ١٩.

(٢) البقرة: ٣٠ ـ ٣١.

الملائمة ، أنَّ الإنسان فيها قد يحدث له بعض التجاوزات الفرديّة التي كانت تظهر بسبب الهوىٰ ، ولكن سرعان ما يجرع الىٰ فطرته عندما تـهدأ سـورة الهوىٰ من حقدٍ أوحسدٍ أوغضب أوشهوة ،كما يشير القرآن الكريم الىٰ ذلك في حادثة ابني آدم :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾[١] .

ظاهرة الاختلاف

وبعد هذه المرحلة ومرور فترة زمنيّة معينة تكامل بها المجتمع البشري، وتوسّع في أعداده وحاجاته ومتطلباته جاءت فترة الاختلاف في البشريّة .

ويبدومن القرآن الكريم أنَّ البشريّة في جميع أدوارهاكانت محكومة بما يمكن أن نسميه بقانون الاختلاف :

﴿ وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[٢]، حيث نجد

---

(١) المائدة : ٢٧ ـ ٣١.

(٢) هود : ١١٨ ـ ١١٩.

أنَّ الاختلاف كواقع خارجي كان موجوداً وقائماً في مختلف المراحل التاريخيّة ، وقد كان هذا الاختلاف نتيجة طبيعيّة لقانون آخر وضع الله تعالىٰ البشريّة في اطاره ، وهو قانون الامتحان والاختبار ، والذي شكّل المنهج الوحيد لعملية البناء والتكامل للأُمم والأفراد الصالحين ، في اطار المخلوق العالم والمختار ، الذي يعتمل في نفسه الشعور بالحاجة والرغبات والشهوات، والذي هيأ الله تعالىٰ له حياة طويلة ومتنوعة وهي الحياة الدنيا والآخرة ، حيث كانت فترة الامتحان له وهي الحياة الدنيا، فترة العمل من أجل هذا التكامل وفرصة فيه ، وكانت الحياة الأُخرىٰ هي فترة الحساب والثواب والعقاب وتحقق الأهداف (الحياة الحقيقيّة) :

﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ﴾[2].

﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾[3].

وقد بدأ الاختلاف في الانسانيّة بسبب تأثير الهوىٰ الذي أودعه الله عزَّ وجلّ في النفس البشرية قوة جاذبة تُوازن في عملية تُوازن في عملية الارادة والاختيار قوة العقل والفطرة الإنسانية ، حيث يعتمد الهوىٰ بالأصل على رؤية الأُمور عملياً من خلال المحسوسات الماديّة فقط والحاجات الأمنيّة الدنيويّة

---

(١) العنكبوت : ٦٤.

(٢) العنكبوت : ٢ .

(٣) الملك : ٢ .

التي تتطلبها الغرائز الإنسانية ، ويعتمد علىٰ المشاعر والأحاسيس التي تخلقها المصالح الوقتية ، في مقابل العقل الذي يعتمد علىٰ الرؤية الصحيحة والدقيقة لواقع الكون والحياة ، والنظرة الىٰ الحياة الإنسانية علىٰ أساس أنّها حياة لها امتداداتها الغيبيّة في المبدأ والمعاد ، وان لها حاجات ماديّة وروحيّة معاً لابد من تكاملها في المتطلبات والالتزامات ، وأهمية ايجاد التوازن بينها في العمل والسلوك ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾(١) . ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾(٢) .

وكذلك ينظر العقل الىٰ المصالح الانسانيّة بنظرة شمولية ترتبط بالفرد والمجتمع والحياة الدنيا والآخرة .

ومن هنا نجد الهوىٰ يدعو عملياً الىٰ اطلاق العنان للغرائز والشهوات ويدعو أيضاً الىٰ الاهتمام بالمصالح الخاصة الذاتية من خلال رؤية الإنسان لذاته وحركتها في هذه الحياة الدنيا فقط ، والتي قد تضيق وتتسع حسب فهم هذا الإنسان لهذه الحياة ، ومدىٰ حركته وسعة وجوده أواندفاعاته الغرائزية التي قد يقوم بعضها علىٰ البعض الآخر عندما تتزاحم فيما بينها ، ومن هنا نجد

---

(١) الاعراف : ٣٢ .

(٢) آل عمران : ١٤ ـ ١٥ .

هذا النوع من الناس الماديين مختلفين في اهتماماتهم بالذات ، حيث انَّ بعضهم يركّز علىٰ شخصه أوعشيرته أواسرته أوعلىٰ القضايا الجنسية أوالمالية أوالجاه والمناصب أوغير ذلك من الشهوات ، لأنَّ نظرته لحركة ذاته في الحياة الدنيا تفرض عليه هذا النوع من الاهتمام أوذاك .

وفي مقابل ذلك نجد العقل يدعو الىٰ السيطرة علىٰ الغرائز واخضاعها الىٰ الضوابط والقيود ، وتوجيهها في السلوك وفقا لما تقتضيه المسيرة الطويلة للتكامل الانساني الشامل ، وكذلك يدعو العقل الىٰ الاهتمام بالمصالح الإنسانية العامة والخاصة من خلال رؤية الإنسان لذاته وحركتها في الحياة الدنيا والآخرة معاً ، حيث يصبح حبّ الذات الذي هو من الأُمور الفطرية والغريزية في الإنسان ، وكذلك حبّ الخير والشهوات واللّذات ، لها مداليل أُخرىٰ في حياة الإنسان تنسجم مع هذا الفهم ، وكذلك التضحية والفداء والمعاناة والآلام والبذل والانفاق والايثار ، وكذلك العشيرة والاسرة والقبيلة والوطن والناس لهم معانٍ أُخرىٰ تصبُّ في سبيل الله ورضوان الله ، والوصول الىٰ درجات الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أُولئك رفيقاً :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ﴾(١) .

ويمثل هذا المشهد القرآني هذه الرؤية :

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

(١) النساء : ٦٩ .

وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾(١).

وعندما يتبع الإنسان الهوىٰ ويخرج عن توجيه العقل ، يوجد الاختلاف بسبب عدوان أصحاب الهوىٰ علىٰ الناس والكون والتناقض بين المصالح والارادات ، والتنافس غير الشريف علىٰ الجاه والسلطة والشهوات بين الناس .

ويبدو من القرآن الكريم أنّ هذا النوع من الاختلافات هو أول الأنواع التي ظهرت في التاريخ الانساني ، والتي توقعها الملائكة من خلال طبيعة خلق هذا الإنسان كما يتحدث القرآن الكريم :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

---

(١) الحديد : ١٨ ـ ٢٣ .

(٢) البقرة : ٣٠.

الاختلاف بسبب العقائد

لما برز الاختلاف بسبب الهوىٰ ، اقترن ذلك بتطور الحياة الانسانيّة ووجود التعقيد والتركيب فيها ، وأصبح الإنسان عاجزاً أن يقوم بمفرده ومن خلال عقله وفطرته عن حلّ المشكلات الصعبة والعميقة في حياته ، عندئذٍ حدث تطور جديد في الحياة الانسانيّة ، حيث تفضّل الله سبحانه علىٰ عبادة بانزال الكتب والرسالات السماوية وارسال الأنبياء ليرشدوا هؤلاء الناس الىٰ طريق الهدىٰ والصلاح ، وليحكموا في الخلافات والنزاعات بينهم بالحق والعدل ،كما تؤكد علىٰ ذلك آية سورة البقرة السابقة وغيرها من الآيات :

﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ ...** ﴾[1] .

وقدكان لهذا التطور الجديد أن يرتقي بالحياة الإنسانية في فهمها للحياة وللكون ، وفي تشخيص معالم الفطرة في النفس الإنسانية وتوضيحها ضمن صيغ وقوانين محددة ،كما تمَّ تشخيص مواضع القسط والعدل والظلم والجور، ومعالم الصلاح والفساد ، والخير والشر ، والحسنة والسيئة ، والمعروف والمنكر ، والاختلاف بجانبيه المحمود والمذموم ،كما توضحت سبل وأساليب الارتباط بالله تعالىٰ وعبادته وحمده وشكره وتسبيحه وتقديسه ، كل ذلك من خلال الرسالات السماوية .

وفي مقابل هذا التطور الجديد والضروري الذي يمثل الرحمة الإلهيّة ،

---

(١) البقرة : ٢١٣ .

تطوّر الامتحان والاختيار لهذا الإنسان متناسقاً مع درجة التكامل الجديدة التي أخذ يواجهها هذا الإنسان ، فحدث نوع جديد من الاختلاف ، وهو الاختلاف في العقائد الإلهيّة ، من خلال تأثير الهوىٰ في الإنسان حيث سيطر علىٰ سلوك بعض الناس وتحوّل الىٰ اله يُعبد من دون الله، فانحرف هذا الإنسان عن فطرته التي اختلفت تحت ركام السيئات والذنوب والانحرافات والآثام والشهوات ، الأمر الذي أدّىٰ الىٰ التمرّد علىٰ الله ، ورفض الإنسان الاستماع الىٰ نداءات الرسل والأنبياء في التوحيد الالهي ، أوفي الايمان بالوحي والرسالة ، أوالايمان بالمعاد والنشور ، وحتىٰ النداءات الاخلاقيّة والاصلاحيّة للمجتمع وللانسان ، وفي تحقيق العدل والقسط ، وقد أشار القرآن الكريم الىٰ هذا التحول في الأوضاع الإنسانية ، وهذا النوع من التمرّد في مثل قوله تعالىٰ :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(٢٣) وَقَالُواْ مَاهِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[١] .

وتمثل سورة نوح عليه السلام صورة رائعة عن هذا التطور والمواجهة التي حصلت في بدايات هذا التحول في التاريخ البشري كما يظهر :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً * فَقُلْتُ

(١) الجاثية : ٢٣ ـ ٢٤ .

اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴾[١].

كما أشار القرآن الكريم في مواضع عديدة الىٰ هذا النوع من الاختلاف بشكل عام في الآية ٢١٣ من سورة البقرة السابقة، وفي مثل قوله تعالىٰ:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[٢].

﴿ تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[٣].

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لاَ رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ * وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاء فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾[٤].

ولعلَّ هذا النوع من الاختلاف هو الذي أشار اليه إبليس في محاورته مع الله سبحانه وتعالىٰ، وتوعده للانسان تعبيراً عن الحالة التي كان عليها إبليس في موقفه من السجود لآدم، وتمرده علىٰ الله تعالىٰ حيث انطلق في ذلك من الهوىٰ والأنا والشعور بالتميز الذاتي علىٰ آدم عليه السلام:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ

(١) نوح: ٥ـ ١١.

(٢) آل عمران: ١٩.

(٣) النحل: ٦٣ـ ٦٤.

(٤) الشورىٰ: ٧ـ ٨.

وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾(١).

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾(٢).

وفي تطور آخر الىٰ جانب الاختلاف العقائدي بدا سبب آخر للاختلاف ينطلق من الهوىٰ أيضاً، وهو الاختلاف بسبب الجهل والطغيان، وتحول بعض الممارسات السلوكيّة الىٰ عادات ثابتة أو تقاليد مقدّسة لوراثتها عن الآباء والأجداد، وبفعل الاجتهادات والتغيرات القائمة علىٰ الهوىٰ والأغراض الشخصيّة، أوالظنون والأوهام، الأمر الذي أدّىٰ الىٰ انقسام الناس الىٰ جماعات متعصبة وأحزاب متفرقة، يقتل بعضهم البعض الآخر، ويشرده من دياره، أويستعبده ويستغله من أجل مصالحه وحاجاته وارضاءً لرغباته وشهواته:

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(٣).

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ

(١) الأعراف: ١١ ـ ١٣.

(٢) الحجر: ٢٨ ـ ٣٣.

(٣) الروم: ٤١.

وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(١).

﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ﴾(٢).

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴾(٣).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾(٤).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾(٥).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾(٦).

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعاً لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾(٧).

---

(١) القصص : ٤.

(٢) آل عمران : ٧.

(٣) البقرة : ٧٨.

(٤) المائدة : ٩٠ ـ ٩١.

(٥) البقرة : ١٧٠.

(٦) المائدة : ١٠٤.

(٧) الأنعام : ١٥٩.

وهناك المئات من الآيات الكريمة التي تناولت معالم الفساد والانحراف في العقائد والسلوك والاجتهادات ، وتحدثت عن مفردات الهوىٰ وزخارف الدنيا وآثارها في الحياة الإنسانية .

وقد شرع الإسلام الدعوة الىٰ الله ، والبلاغ بالهدىٰ ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله لمواجهة هذه الأنواع من الاختلافات بحسب مستوياتها وطبائعها ،كما تنص علىٰ ذلك الآيات الكريمة الكثيرة .

﴿ فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾[1] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[2] .

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3] .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[4] .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ

---

(١) الفرقان : ٥٢ .

(٢) التحريم : ٩ .

(٣) آل عمران : ١٠٤ .

(٤) التوبة : ٧١ .

الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[١] .

وقد أكّد القرآن الكريم انَّ الله سبحانه وتعالىٰ من أجل تنبيه الناس ووعظهم في الحياة الدنيا للقضاء علىٰ أسباب الاختلاف وفتح طريق التكامل أمام مسيرة البشريّة علىٰ المستوىٰ الفردي والعالمي وضع قانونين آخرين :

أحدهما : قانون الاستغفار والتوبة والانابة والعفو ، ليكون أمام الإنسان فرصة الرجوع عن أخطائه وذنوبه حيث يتكامل بهذه التوبة ، ويتفضل عليه الله عزَّ وجلّ بالمغفرة .

ثانيهما : قانون الانتقام الدنيوي للجماعات عندما تتفاقم حالة الانحراف وتتزايد الذنوب والجرائم والسيئات ، ليكون هذا الانتقام عبرة للأجيال القادمة والأُمم الآتية .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يؤكّد علىٰ هذين القانونين سواء في العطاء النظري والفكري أوفي قصص الانبياء والاقوام ، من أجل معالجة هذه الاسباب وتوضيح الرؤية والطريق للناس في طريق الكمال ، قال تعالىٰ :

﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾[٢] .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٣] .

---

(١) الاعراف : ١٥٧ .

(٢) النساء : ١٧ .

(٣) آل عمران : ١٣٥ .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾(١).

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّثَمُودَ ﴾(٢).

﴿ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾(٣).

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾(٤).

كما حدّد القرآن الكريم المعالم الاساسيّة التي يمكن أن تقوم عليها وحدة المجتمع البشري في نهاية المطاف، حيث ستصل مسيرة البشرية الىٰ هذا الهدف في أواخر أيامها الدنيويّة كما وعد الله سبحانه وتعالىٰ بذلك.

وسوف نتحدث عن هذه الاسس التي تقوم عليها الوحدة في نظر القرآن الكريم في الفصل الآتي عند الحديث عن الوحدة في المجتمع الإسلامي.

---

(١) يونس: ٧٣.

(٢) هود: ٦٧ ـ ٦٨.

(٣) هود: ٨١ ـ ٨٣.

(٤) هود: ١٠١ ـ ١٠٢.

الاختلاف والوحدة بين الديانات الإلهيّة

من الواضح من خلال النظريّة القرآنية أن فكرة الوحدة لابد لها من قاعدة ووسائل ،كما سوف نتحدث عن ذلك في الفصل الآتي . ولكن هنا لابدَّ أن نشير الىٰ أنَّ الوحدة بين أبناء البشر يمكن أن تتحقق فيما إذاكان هناك قاسم مشترك رئيسي يكون منطلقاً لهذه الوحدة ، ومقبولاً في العمل من أجل الوحدة، ومن وجهة نظر القرآن الكريم يمكن تحديد هذا القاسم المشترك علىٰ مستوىٰ البشرية علىٰ أساس الأمرين التاليين :

الأول : الايمان بالله تعالىٰ والوحي والرسالات واليوم الآخر .

الثاني : القبول بالعزّة والكرامة الانسانيّة والاحترام للإنسان وحريته في العقيدة والفكر والعمل .

ولذا فلا مجال للوحدة في نظر القرآن الكريم بين المؤمنين والكافرين في مجتمع واحد حقيقي ، فقد يجمعهم مكان واحد ووطن واحد وتكون بينهم (الهدنة) ، ولكنَّهم لا يمكن أن يكونوا مجتمعاً واحداً من وجهة نظر الإسلام ، فلا يمكن في الوحدة التنازل عن هذا الأمر ، لأنَّ الشرك ظلم عظيم، ويغفر كلّ ذنب دونه ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ﴾[1] .

وبالتالي فهو يمثّل حاجزاً نفسياً وتناقضاً اجتماعياً وظلماً لا يمكن

---

(١) النساء : ٤٨ .

التجاوز عنه ، بل يمثل التمزق والاختلاف بين الناس علىٰ أساس التعدد في التدبير ، بخلاف التوحيد الذي يمثل الوحدة الحقيقيّة في الكون والمجتمع .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾(١) .

ولا شك أنَّ هذا الموقف الذي يذكره القرآن لابراهيم وأتباعه من أجل التأسي به ، يجسد هذه النظرة القرآنية للوحدة ، ولكنَّه موقف انّما يتم اتخاذه بعد إقامة الحجة والبلاغ بالحكمة والموعظة الحسنة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٢) .

كذلك لا مجال للوحدة في نظر القرآن بين الطغاة والمساكين والمتجبرين والمستضعفين والظالمين والمظلومين في مجتمع واحد حقيقي ، فقد يجمعهم ـ أيضاً ـ مكان واحد ووطن واحد ، ولكنّهم ليسوا مجتمعاً واحداً في نظر الإسلام ، بل يتحول المجتمع الىٰ مجتمع متمزق ومتفرّق في واقعة :

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾(٣) .

---

(١) الممتحنة : ٤ .

(٢) التوبة : ٢٣ .

(٣) القصص : ٤ .

بل إنَّ الإسلام فرض القتال علىٰ المستضعفين عندما يكونون قادرين علىٰ ذلك ، والقتال هو النزاع والاختلاف والفرقة :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1] .

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً ﴾[2] .

ومن هذا المنطلق نجد القرآن الكريم عالج بشكل خاص قضية الوحدة والاختلاف بين المسلمين وأهل الكتاب (أهل الديانات الإلهيّة) ، باعتبار توفر القاسم المشترك بينهما ، فانَّ القرآن الكريم في البداية دعا أهل الكتاب الىٰ دين الحق وهو الإسلام ، وحثهم علىٰ الدخول فيه :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3] .

---

(١) الحج : ٣٩ ـ ٤٠ .

(٢) النساء : ٧٥ .

(٣) المائدة : ١٥ ـ ١٦ .

معالجة أسباب الانحراف عند أهل الكتاب

وقد حاول القرآن الكريم أن يعالج مجمل الانحرافات وأسباب الاختلاف التي كانوا عليها ، خصوصاً قضية الشرك بالله تعالى ، ونقضهم للمواثيق ، وذلك من أجل توحيدهم في دين واحد وجعلهم أُمة واحدة :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ * لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء وَلَكِنَّ كَثِيراً مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾(١) .

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢) .

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾(٣) .

ويمكن تلخيص أهم هذه الأسباب بالنقاط التالية :

---

(١) المائدة : ٧٧ ـ ٨١ .

(٢) المائدة : ١٧ .

(٣) المائدة : ٧٠ .

١ ـ الانحراف في العقيدة من خلال الكفر بآيات الله وقتل الأنبياء والغلو في العقيدة، كنسبة الولد الىٰ الله أو تصور أنَّ الله ثالث ثلاثة أو أنَّ يد الله مغلولة أو اتخاذ الرهبان والأحبار أرباباً من دون الله أو غير ذلك من الموارد التي أشار اليها القرآن الكريم.

٢ ـ التمسك والتعصب للأسماء والشعارات بعيداً عن الالتزامات العملية والسلوكية كقولهم نحن أبناء الله واحباؤه وزعمهم أنهم أولياء الله الذين لا يتعرضون الىٰ العذاب والمؤاخذة، لتمسكهم بهذه الديانات:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾(١).

٣ ـ نقض المواثيق والعهود التي أخذها الله عليهم في الايمان به، والدفاع عن الحق والمظلومين، وفي التصديق بالنبي الأُمي العربي، قال تعالىٰ:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٢).

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾(٣).

---

(١) المائدة: ١٨.

(٢) آل عمران: ٨١.

(٣) آل عمران: ١٨٧.

٤ ـ الاهتمام بالمناصب والمواقع الاجتماعية وجمع الأموال عن طريق المتاجرة بالدين وآيات الله وكلماته، قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾[١].

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآَخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[٢].

٥ ـ تأويل النصوص الدينية وتفسيرها حسب الأهواء والآراء والأماني، وعن طريق الاجتهادات الخاطئة البعيدة عن العلم واليقين والاعتماد علىٰ الظن والوهم، قال تعالىٰ:

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾[٣].

(١) البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٥.

(٢) البقرة: ٨٥ ـ ٨٦.

(٣) البقرة: ٧٨ ـ ٧٩.

إطار الوحدة بين الديانات الإلهيّة

وقد وضع القرآن الكريم اطاراً للوحدة بين التأريخ والديانات الإلهيّة الىٰ جانب محاولته لمعالجة مجمل الانحرافات التي أصابت الأُمم والجماعات التي آمنت بهذه الرسالات، وذلك من أجل إبقاء العلاقة النفسية والروحية بين المسلمين وأتباع هذه الديانات، وتهيئة الأرضية للتعايش الاجتماعي والسياسي بين هذه الديانات من ناحية، وايجاد صف واحد للمؤمنين بالله واليوم الآخر في مواجهة قوىٰ الوثنية والشرك والالحاد.

ويمكن أن نجد معالم هذا الاطار وأبعاده في النقاط التالية:

النقطة الأُولىٰ: الايمان بالله الواحد، والوحي الالهي واليوم الآخر، والكتب والرسالات، حيث يمثل هذا الايمان الأساس المشترك لهذه الديانات كلها.

وبالرغم من الاشارات القرآنية الىٰ وجود الانحراف عن هذا الأصل في بعض هذه الديانات، بحيث عبّر عنه القرآن الكريم بالكفر، ولكن يبدو أنَّ تقويم القرآن الكريم لهذا الكفر والشرك لم يكن بالدرجة التي تؤدي الىٰ القطيعة والانفصال ولعلَّ ذلك ـ والله أعلم ـ ينطلق من أنَّ هذا النوع من الكفر والشرك ليس بالدرجة العالية من الانحراف، لأنه كفر وشرك يرتبط بتصور الذات الالهية تصوراً منحرفاً، أوالغلو في فهم بعض أفراد الأنبياء، والصعود بدرجاتهم الىٰ مستوىٰ يجعلهم يمثلون امتداداً لله الواحد نفسه، كما يبدوذلك في تصور بعض طوائف النصارىٰ للمسيح وأُمّه بحيث تصبح الذات الإلهيّة ذات أبعاد ثلاثة، أومراحل ثلاثة، تشبه المراحل التي تمرّ بها بعض

الموجودات البشرية أوالماديّة (الأب والابن وروح القدس) :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾(١).

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾(٢).

﴿ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ﴾(٣).

ويبدو أنَّ القرآن الكريم لم يستخدم كلمة «الشرك» و«المشركين» من أهل الكتاب ، بل وضع «الذين كفروا» في مقابل أهل الكتاب بالرغم من انتقاد القرآن الشديد لأهل الكتاب أحياناً ، ووضعهم الىٰ صفّ المشركين في إدانتهم ، والمصير الذي سوف ينتهون اليه أحياناً أُخرىٰ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾(٤)

كما أنه قرنهم بالمشركين في أول السورة .

﴿ مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾(٥).

ويبدو من سياق الآيات في بعض الموارد كما في الآية السابقة وغيرها، ومن التصريح في بعض الموارد الأُخرىٰ وجود الفرق بين أهل الكتاب أنفسهم من اليهود والنصارىٰ ، حيث اصطفّ اليهود الىٰ جانب ، فكانوا أشد

---

(١) المائدة : ٧٣.

(٢) التوبة : ٣٠.

(٣) التوبة : ٣٠.

(٤) البيّنة : ٦.

(٥) البقرة : ١٠٥.

الناس عداوةً وايذاءً للمسلمين ، شأنهم في ذلك شأن المشركين ، علىٰ خلاف النصارىٰ الذين فيهم القسيسون والرهبان :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾[1] .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[3].

وبعد أن يستعرض القرآن الكريم مواقف طوائف أهل الكتاب وانحرافاتهم وما يجب علىٰ المسلمين من مواقف تجاههم يختم هذا المقطع بقوله تعالى :

﴿ لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾[4].

---

(١) المائدة : ٨٢ ـ ٨٣.

(٢) آل عمران : ٧٥.

(٣) آل عمران : ٦٩.

(٤) آل عمران : ١١٣ ـ ١١٥.

وانطلاقاً من هذا التصور نجد القرآن الكريم يدعو أهل الكتاب الىٰ كلمة التوحيد باعتبارها الكلمة الجامعة والتي تمثّل القاسم المشترك بينهم وبين المسلمين .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[١] .

كما نلاحظ القرآن الكريم يضع أهل الكتاب بأصنافهم المتعددة في صفٍّ واحدٍ مع المسلمين في النهايات ، وذلك انطلاقاً من هذه الرؤية الواقعيّة، والتمييز بين بعضهم والبعض الآخر ويضع قضية الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح أساساً لذلك .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٢] .

ومثلها في اللفظ وفي المعنىٰ مع اختلاف بسيط الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[٣] .

النقطة الثانية : التأكيد علىٰ وحدة الرسل والرسالات ، فالأنبياء وما جاءوا به من الوحي انّما هو من مصدر واحد ، وهو الله سبحانه وتعالىٰ ، وهم يتحملون مسؤولية من نوع واحد وهي مسؤولية بلاغ رسالات الله ، واصطلاح البشر ،

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

(٢) البقرة : ٦٢ .

(٣) المائدة : ٦٩ .

ودعوتهم الىٰ الخير والهدىٰ والصلاح ، وتحذيرهم من الشر والضلال والفساد وكذلك قيامهم بين الناس بالعدل والقسط وحلّ الاختلاف بالحق من خلال الحكم الالهي ، لا بالهوىٰ والميول والرغبات وقد أكّد القرآن الكريم هذه الوحدة بأساليب متعددة : فتارةً يصرّح بها من خلال استعراض مسيرة الأنبياء ودعواتهم وبعد بيان أعمال مجموعة منهم ثم يختم ذلك بقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾[1] .

وكذلك قوله تعالىٰ :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾[2] .

وأُخرىٰ : باسلوب تأكيد وحدة مضمون دعوة الأنبياء المتعددين عند استعراض رسالتهم الىٰ أقوامهم ، كما نلاحظ ذلك في عدة سور قرآنية كالشعراء ، وثالثة بالاشارة الىٰ أنَّ العقيدة الإسلاميّة الصحيحة هي عدم التفريق بين الرسل ، والايمان بهم جميعاً مع احترامهم ، والانكار علىٰ مَن يفرّق بين هؤلاء الرسل لأنهم جميعاً هم رسل الله تعالىٰ :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾[3] .

﴿ قُولُواْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ

---

(١) الانبياء : ٩٢.

(٢) المؤمنون : ٥١ ـ ٥٢ .

(٣) البقرة : ٢٨٥ .

وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[1].

وكذلك قوله تعالىٰ:

﴿ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَـئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً * إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً * رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾[2].

ورابعة من خلال التركيز في الحديث علىٰ الأنبياء المعروفين لدىٰ أوساط أهل الكتاب وقصصهم كآدم ونوح وإبراهيم ويعقوب ويوسف وموسىٰ وداود وسليمان وزكريا وعيسىٰ وغيرهم.

النقطة الثالثة: الدعوة الىٰ تطبيق الأحكام الالهية المشتركة الثابتة في التوراة والانجيل، ليتضح مدىٰ التقارب والوحدة بين هذه الأديان، خصوصاً وانّ هذه التشريعات يكمّل بعضها البعض الآخر، حيث نجد القرآن الكريم يتناول هذا الموضوع بأساليب متعددة:

أ ـ أشار الىٰ الأحكام التي كانت ثابتة في الديانات السابقة كما تمّ ذلك في

---

(١) البقرة: ١٣٦.

(٢) النساء: ١٦٢ ـ ١٦٥.

الصوم والقصاص والربا وغيرها ، قال تعالىٰ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١) .

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(٢) .

﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾(٣) .

ب ـ المطالبة بالرجوع الىٰ التوراة والانجيل في فصل الاختلافات التي تواجه أهل الكتاب ، وتشخيص الاحكام المقارنة بينها وبين ما هو موجود في التوراة والانجيل .

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٤) .

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾(٥) .

---

(١) البقرة : ١٨٣ .

(٢) المائدة : ٤٥

(٣) النساء : ١٦١ .

(٤) آل عمران : ٩٣ .

(٥) المائدة: ٦٨ .

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء فَلاَ تَخْشَوُاْ النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُواْ بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾(١).

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٢).

ج ـ اسلوب الدعوة الىٰ أهل الذكر والمعرفة من علماء أهل الكتاب لتبيّن الحقائق التي جاء بها الإسلام بعد تذكريهم بها ، قال تعالىٰ :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(٣).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾(٤).

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٥).

---

(١) المائدة : ٤٣ ـ ٤٤ .

(٢) المائدة : ٤٧ .

(٣) النحل : ٤٣ .

(٤) الانبياء : ٧ .

(٥) الاعراف : ١٥٧ .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾(١) .

النقطة الرابعة : الدعوة الىٰ التسليم والقبول بالرسالة الاسلامية واصولها الإلهيّة ، واحترام النبي الأُمي العربي المتمثل برسول الله ﷺ حيث إنّ الإسلام يعترف بشكل طبيعي بالرسالات السابقة والأنبياء السابقين ، وبالتالي باقوامهم وأتباعهم الذين آمنوا بهم ، وباعتباره الرسالة الخاتمة فلابدّ له من تصديق الرسالات السابقة في الوقت الذي يمثل الهيمنة عليها ، واكمالها وتصحيح الانحرافات التي طرأت عليها من خلال التراكم الزمني والتاريخي، والرواسب والمخلّفات الاجتماعية والقوميّة ، والانحطاط الأخلاقي .

وقد توسل القرآن الكريم الىٰ هذه الدعوة بأساليب متعددة أيضاً :

أ ـ ارجاع الإسلام الىٰ الأصل الابراهيمي ، والتأكيد علىٰ موقع إبراهيم عليه السلام في الرسالة الإسلاميّة ، باعتباره أب الأنبياء الاسرائيليين والنبي الذي تلتقي به الرسالات السماوية ، ومن هنا جاء التأكيد علىٰ أنَّ اسم الإسلام كان من ابراهيم عليه السلام وانه كان مسلماً حنيفاً ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً .

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾(٢) .

---

(١) البقرة : ١٤٦ .

(٢) الحج : ٧٨ .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

ب ـ دعوة أهل الكتاب للاعتراف بالنبي ورسالته من خلال التأكيد على بشارة الأنبياء والكتب السماوية به ، حيث تمت الاشارة في القرآن الكريم الىٰ هذه الحقيقة في عدة موارد ، منها ما ورد في سورة الأعراف في سياق الحديث عن موسىٰ ودعائه الله تعالىٰ وجوابه تعالى له : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاء وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴾[2] .

ومنها : ما ورد في سورة الصف من قوله تعالىٰ علىٰ لسان عيسىٰ بن مريم بعد الاشارة الىٰ موقف قوم موسىٰ وقوم عيسىٰ منهما ﴿ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن

(١) آل عمران : ٦٥ ـ ٦٧ .

(٢) الاعراف : ١٥٦ ـ ١٥٩ .

بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(١).

ومنها: ما ورد في سورة البقرة من قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾(٢).

ومنها: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾(٣).

ج ـ مناقشة الافكار المختلفة والمهمة عند أهل الكتاب وارجاعها الىٰ أُصولها الصحيحة وتذكيرهم بما يخفون من الكتاب كما هو الحال في فكرة تولد المسيح من غير أب التي كانت سبباً لاثارة الاتهام تجاهه عند اليهود، والاعتقاد بأنّه تجسيد للاله عند النصارىٰ: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾(٤).

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾(٥).

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا

(١) الصف: ٦.

(٢) البقرة: ٨٩.

(٣) آل عمران: ٨١.

(٤) المائدة: ١٥.

(٥) آل عمران: ٥٩.

بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(١) .

وكذلك فكرة أنَّ اليهود والنصارىٰ هم أبناء الله وأحباؤه وانهم لا يتعرضون للعذاب والعقاب :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾(٢) .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٣) .

وكذلك فكرة الفقر والبخل الالهي التي كان يقول بها اليهود ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء ﴾(٤) .

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٥) .

النقطة الخامسة : الاعتراف بالوجود الديني والاجتماعي لأصحاب هذه الديانات ضمن المجتمع الإسلامي علىٰ مستوىٰ علاقات المواطنة

---

(١) المائدة : ١٧ .

(٢) المائدة : ١٨ .

(٣) الجمعة : ٦ .

(٤) المائدة : ٦٤ .

(٥) آل عمران : ١٨١ ـ ١٨٣ .

أو العلاقات الاقتصاديّة أوعلاقات الاسرة والروابط الاجتماعيّة ،كما تدل علىٰ ذلك بعض الآيات الكريمة ، ويؤكده التعامل السياسي في الدولة الإسلاميّة ، واتفاقيات المواطنة التي تسمىٰ بالخيريّة ، وابقاء وجودهم الديني من المعابد والشعائر الدينية ، والأحكام في الاصول الشخصيّة ، وكذلك ابقاء الاراضي المفتوحة عنوة في أيديهم ، وفتح الأبواب لهم في مختلف المجالات الاقتصاديّة والعلميّة والثقافية ، ومن الآيات التي تناولت هذا الموضوع هي آيات الجزية :

﴿قَاتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلَايُحَرِّمُونَ مَاحَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَايَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1] .

فانَّ هذا الاستثناء لا يشمل المشركين ولا غيرهم من الملحدين المرتدين، خصوصاً وآنها جاءت في سياق البراءة من المشركين:﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَامُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي ٱلآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ﴾[2] .

فانّ هذه الاية تشير الىٰ العلاقات التجارية في قوله تعالىٰ:﴿وطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾، وكذلك الىٰ العلاقات الزوجيّة خصوصاً اذا قارنّاها بالموقف من

---

(١) التوبة: ٢٩.

(٢) المائدة: ٥.

المشركين في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾[١]، ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾[٢].

كما يؤكد القرآن في بعض الآيات علىٰ الجانب الروحي والعاطفي الموجود في أوساط بعض أهل الكتاب كالنصارىٰ، كما أشرنا الىٰ ذلك في آية سورة المائدة، وكما في قوله تعالىٰ:

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٣].

انّ هذه النقاط الخمس التي ذكرناها ووضعنا بعضها الىٰ جانب الآخر، وجدنا أنّ القرآن الكريم في الوقت الذي كان يسعىٰ الىٰ تصحيح انحرافات أهل الكتاب، ودعوتهم لدخول الإسلام والالتزام بدين الحق... في نفس الوقت كان يسعىٰ أيضاً لايجاد صفٍ واحد من المؤمنين بالله والوحي والرسالات واليوم الآخر، ليكونوا في مواجهة صف الشرك والوثنية والالحاد، ولو لا موقف يهود الجزيرة العربيّة من ناحية وموقف الطغاة الحاكمين في أوساط النصارىٰ والمجوس، لوجدت هذه الدعوة آذاناً صاغية في أوساط أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ والمجوس والصابئة.

ويؤكد هذا الفهم التعاطف النفسي والروحي الذي كان يشعر به المسلمون

---

(١) الممتحنة: ١٠.

(٢) البقرة: ٢٢١.

(٣) الحديد: ٢٧.

تجاه أهل الكتاب، وخصوصاً النصارىٰ منهم كما تشير الىٰ ذلك القصة التي تشير اليها الآية في أول سورة الروم:

﴿الٓمٓ* غُلِبَتِ ٱلرُّومُ* فِي أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ* فِي بِضْعِ سِنِينَ...﴾[1] حيث يذكر التاريخ أنّ المشركين أظهروا الشماتة وأثاروا الشبهات حول الإسلام، عندما تعرّض الروم الىٰ هزيمة علىٰ أيدي الفرس، حيث كانوا يصنّفون الىٰ جانب الوثنيين لعبادتهم النار بخلاف الروم النصارىٰ، وكذلك القصة التي تحدثنا عن موقف ملك الحبشة تجاه المسلمين ورفضه لطلب المشركين تسليم المسلمين اليهم، وبعد ذلك الرعاية الخاصة التي وجدها المسلمون في الحبشة، كما يؤكّد ذلك تعايش أهل الكتاب بشكل عام، وخصوصاً النصارىٰ، فهم مع المسلمين في مختلف أدوار الدولة الإسلاميّة وأقطارها، بحيث كانت تتم الرعاية لهم والتعايش معهم أحياناً اكثر من رعاية بعض فرق المسلمين المعروفة.

وهذا الفهم يعرض علينا في هذا العصر موقفاً سياسيّاً وثقافياً واجتماعياً تجاه أهل الكتاب، وخصوصاً النصارىٰ منهم في العالم المسيحي والكنائس المختلفة المتعددة، وضرورة التمييز بين الموقف الاستعماري أوالصليبي لهذا العالم والحقيقة الدينية والثقافيّة، وبالتالي السعي الىٰ تبيين القواسم المشتركة، ومعالم الوحدة الحقيقيّة، كما صنع القرآن الكريم ذلك في الصدر الأول، فانّه لم يخلط بين المواقف الحاقدة لبعض أهل الكتاب وكذلك الانحرافات العقائديّة والاخلاقيّة والسياسيّة، والمواقف المتعاطفة والأفكار المشتركة.

---

(١) الروم: ١ ـ ٤.

ويمكن الانطلاق في ذلك من منطلقين واقعيين في هذا العصر:

الأول: منطلق الايمان بالله والقضيّة الروحيّة والمعنويّة التي تمثل قضية مشتركة.

الثاني: قضية حقوق الإنسان، حيث جاء الإسلام بالكثير من هذه الحقوق، بل تقدم البشرية في مجال طرحها والاهتمام بها وتطويرها وكانت الرسالة الاسلامية دعوة عالمية ذات طابع سياسي انساني جهادي لاحقاق هذه الحقوق.

الفصل الثاني

الوحدة في المجتمع الإسلامي

بعد أن تناولنا في البحث السابق ظاهرة الاختلاف والوحدة في التاريخ الانساني، وتفسير القرآن الكريم لهاتين الظاهرتين وأسبابها وكيفية معالجتهما انسانياً، يحسن بنا أن نتناول موضوع الوحدة والاختلاف في المجتمع الإسلامي، وفي ظل العقيدة الإلهيّة.

وبهذا الصدد سوف نتناول هذا الموضوع من خلال الأبعاد الثلاثة التالية:

١- الاسس التي وضعها القرآن الكريم لوحدة المجتمع الإسلامي، بحيث تقوم هذه الوحدة وتثبت اذا توفرت هذه القواعد والأركان الأساسيّة لها.

٢- الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم، ووضعها أمام النبي ﷺ وبني الإنسان، والتي تضمن بقاء هذا البنيان الالهي واستمراره والمحافظة عليه، وصيانته وتحقيقه.

٣- النتائج والآثار التي تترتب علىٰ قيام الوحدة وتحققها في المجتمع الإسلامي.

البعد الأوّل: أُسس الوحدة الإسلاميّة

من خلال مراجعة سريعة للقرآن الكريم، تظهر أمامنا مجموعة من الاسس والمنطلقات الرئيسية للوحدة في المجتمع الإسلامي.

الأساس الأوّل: عقيدة التوحيد

انّ الايمان بالاله الواحد وما يستلزمه من الايمان بالغيب والملائكة والكتب والانبياء واليوم الآخر، يمثّل أهم الاسس التي تقوم عليها الوحدة في المجتمع الإسلامي، لأن نظرية التوحيد هي نظرية وحدوية، بعد أن يكون مركز النظام التكويني والتشريعي هو الأمّة الواحدة،كما أنّ الناس والمخلوقات جميعاً تخضع وتسبّح بحمد هذا الاله الواحد، وهو الذي يملك يوم الدين والجزاء من ثواب وعقاب، ويأخذ للمظلوم ظلامته، وينتقم من الظالم، ويحقق الميزان والقسط بين الناس، من خلال اليوم الآخر.

﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَالِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(٢)

ومن هذا المنطق نجد القرآن الكريم، أكّد على هذا المفهوم في تصوره

---

(١) الانعام:١٥٣.

(٢) الشورى:١٣.

للوحدة بين المسلمين، ووضع صورتها في هذا الاطار، اذ ليس المهم في نظر القرآن الكريم والإسلام هو مجرّد اجتماع المسلمين واتفاقهم علىٰ شيء أوأشياء، بل المهم أن تكون هذه الوحدة والاتفاق في الله ومن أجل الله وفي سبيل الله.

ويمكن أن نلاحظ ذلك جليّاً في المشاهد القرآنية التالية:

أ - مشهد الوحدة من خلال اعتصام جميع المسلمين بحبل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَاتَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَاتَفَرَّقُوا ...﴾[1]

وهذا المشهد يؤكده مشهد آخر وهو التمسك بالعروة الوثقىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ب - مشهد تأليف القلوب وانسجامها بعضها مع البعض الآخر، من خلال العامل الغيبي المتمثل بالنعمة الالهية والتأييد والنصر الربّاني.

﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[3].

ويؤكّد القرآن الكريم هذا الحقيقة عندما يشير الى الأوضاع الجاهليّة التي كان عليها الناس، بحيث كان من المستحيل اجتماعياً أن يتحقق هذا التآلف بالوسائل الماديّة:

---

(١) آل عمران: ١٠٢-١٠٣.

(٢) البقرة:٢٥٦.

(٣) آل عمران:١٠٣.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١) .

ج – مشهد الامّة الواحدة، بالرغم من اختلاف أزمنتها وتاريخها ولغتها وأمكنتها، وترابطها في العقائد والمفاهيم والأهداف والغايات والوسائل، لأنها كانت تعبد الإله الواحد، وتؤمن بكتبه ورسالاته، كما نلاحظ ذلك في المشاهد التي يقدمها القرآن الكريم عن الأنبياء في مختلف العصور، ووحدتهم، وبالخصوص عندما يتحدث عنهم في سورة الأنبياء والمؤمنين، حيث ختم تلك المشاهد من رسالاتهم ومعاناتهم مع أقوامهم بقوله تعالىٰ: ﴿انّ هذه امتكم امة واحدة وأنا ربّكم فاعبدون﴾ (٢)، ﴿وانّ هذه امتكم أمّة واحدة وانا ربّكم فاتقون﴾ (٣).

حيث يتحدث القرآن بعد هذا المشهد عن حالة التقطيع الىٰ الأحزاب والجماعات بدون هذا المبدأ الالهي.

د – مشهد البراءة والعداوة والبغضاء بين أبناء الاسرة الواحدة والقوم الواحد، بسبب الكفر بالله تعالىٰ وعدم الايمان به: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ

---

(١) الانفال: ٦٢-٦٣.

(٢) الأنبياء: ٩٢.

(٣) المؤمنون: ٥٢.

لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

وكذلك الآية الأخيرة من سورة المجادلة وهي قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَـٰئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

الأساس الثاني: الطاعة للرسول ﷺ

تعتبر الطاعة للرسول والالتزام بأوامره وتعليماه وأحكامه، واتباع مواقفه وقراراته السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والاداريّة والقضائيّة في الدرجة الثانية من حيث الأهميّة في تحقيق وحدة المجتمع الإسلامي، فضلاً عن الآثار الروحيّة والمعنويّة التي تترتب عليها.

وهذه «الأهمية» تنبع من مجموعة من العوامل والمنطلقات العقائديّة والأخلاقيّة والمصالح السياسيّة والقضايا الاجتماعيّة، ويمكن أن نشير بهذه العجالة الىٰ بعضها.

أ - انّ الرسول هو المبلّغ للرسالة، والناطق بالوحي الالهي ﴿وما ينطق عن

(١) الممتحنة: ٤.

(٢) المجادلة:٢٢.

الهوىٰ * ان هو إلّا وحي يوحى...﴾(1)، فتمثّل طاعته طاعة الله سبحانه وتعالىٰ، والايمان به ايماناً بالرسالة الإلهيّة، فهو الخليفة الإلهيّة في الحياة الماديّة. ﴿مَن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾(2) .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(3) .

ب - انّ الرسول يمثّل في النظريّة الإسلاميّة جانب الامامة الىٰ جانب النبوّة والبلاغ، ومعنىٰ ذلك أنّ طاعة الرسول تمثّل التزاماً في أحد جوانبها بالكيان السياسي الإسلامي، وهذا يعني أهمية الدور الذي يعطيه القرآن والإسلام للكيان السياسي في المجتمع، والذي يمكّن الرسول من القيام بمجموع مهماته الأساسيّة في المجتمع الانساني، وبطبيعة الحال ينسحب هذا المبدأ علىٰ جميع الحالات الأُخرىٰ للكيان السياسي الإسلامي الشرعي:

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَانًا

(١) النجم: ٣-٤.

(٢) النساء: ٨٠

(٣) النساء: ٦٤.

وَتَوْفِيقًا* أوْلَئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَافِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا* وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا* فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[1].

فإنّ هذا الآيات الكريمة تتحدث عن جانب الدولة في شخصية الرسول، وتذكر بشكل واضح بأنّ هذه الطاعة لها دور عظيم في توحيد المجتمع الإسلامي، وحل النزاعات والخلافات فيه.

كما تؤكد آيات اخرىٰ عديدة تتناول قضية الاعمال السياسية المضادة للنظام الإسلامي، والتي يطلق عليها القرآن الكريم اسم «النفاق» وعلىٰ القائمين بها «المنافقين»، أهمية الطاعة في معالجة تأثير هذه الحالة في تخريب وحدة المجتمع الإسلامي، سواء علىٰ مستوىٰ ايجاد المناعة من وجود هذا المرض، أومستوىٰ مقاومته والقضاء عليه، حيث يصفهم القرآن الكريم بالصدود والاعراض والتولي:

﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ* وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ* وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ* أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ* إِنَّمَاكَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ* وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ* وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ

---

(١) النساء: ٥٩-٦٥.

طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ* قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[1] .

ج - ان مجالات طاعة الرسول متحركة ومتعددة ومعقدة تتداخل فيها المصالح الاجتماعية العامة مع الاهواء الفردية الخاصة، والقضايا اليوميّة الآنية، مع القضايا ذات الطابع المستمر الثابت، بالاضافة الىٰ مشاكل الأمزجة المتعددة، والآراء والاجتهادات المختلفة، والأوضاع النفسيّة والرواسب العقائديّة والفكرية والأخلاقيّة، والمؤثرات والضغوط الاجتماعيّة والاقتصاديّة، هذه المجالات والامور الّتي تفرض المزيد من الاختلاف والتباين والتناقض والتضاد في المواقف، والتي لايمكن معالجتها إلّا من خلال القوانين والضوابط، وأساليب الفصل والحكم أوالردع، وهذا انّما يتحقق كلّه من خلال النظام والتشريعات المتحرّكة والمواكبة لحركة المجتمع وتفاعلاته، وهذا هو دور وليّ الأمر والحكومة، حيث يمكن للقوانين أن توحّد المجتمع الانساني وتحفظ تماسكه وتلاحمه.

ومن هذه المنطلقات نجد هذا التأكيد الواسع في القرآن الكريم علىٰ دور الطاعة للرسول بحيث قرنت في آيات كثيرة بطاعة الله تعالىٰ، سواء علىٰ مستوىٰ الأوامر الإلهيّة، أوعلىٰ مستوىٰ الدعوة اليها من قبل الرسل أنفسهم، وارشادهم الناس عندماكانوا يدعونهم الىٰ تقوىٰ الله وطاعتهم **﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾**[2].

---

(١) النور: ٤٧-٥٤.

(٢) آل عمران: ٥٠، الشعراء: ١٠٨، ١١٠، ١٢٦، ١٣١، ١٤٤، ١٥٠، ١٦٣، ١٧٩، الزخرف: ٦٣.

أوعلىٰ مستوىٰ تقويم هذه الطاعة، وبيان قيمتها وأهميتها والآثار المترتبة عليها.

وقد كان أحد الآثار المهمّة لهذه الطاعة الّتي صرّح بها القرآن الكريم، هو أنّها تحقق الوحدة بين المسلمين، وتعالج أسباب الخلاف والنزاع. كما عرفنا ذلك في بعض الآيات السابقة، وكذلك في: **﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم...﴾**[1].

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

الأساس الثالث: رعاية القيادة الإسلامية للأمّة

انّ المركز المهم الذي تتمتع به القيادة الإسلاميّة في المجتمع الإسلامي، يؤهل هذا المنصب القيام بدور كبير في تحقيق الوحدة بين المسلمين، لما عرفنا من أنّ هذا الموقع القيادي يمثّل أحد الأسس الهامة في الوحدة الإسلاميّة، وفي الاطار والضوابط والقوانين التي تنتظم فيها هذه الوحدة، وحينئذ تصبح في غاية الأهميّة رعاية هذا الموقع لهذه العلاقات وتحويلها من علاقات جامدة وجافّة الىٰ علاقات روحيّة وعاطفيّة تتسم بالطراوة والحب

→

(١) الأنفال: ٤٦.

(٢) النساء: ٨٣.

والمودّة والمشاعر الانسانيّة الخيّرة، حيث تكون قادرة علىٰ تحقيق آثارها في حفظ الوحدة واستمرارها وبقائها، وهذا ما أشار اليه القرآن الكريم بشكل واضح في بعض الآيات:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ (١)

ومن نجد القرآن الكريم يتحدّث عن هذا الخلق العالي للرسول في قوله تعالىٰ: **﴿ وانّك لعلىٰ خلق عظيم ﴾** (٢)، وفي وصفه لرسول الله:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) .

كما أنّ الله سبحانه أدّب رسوله بهذا النوع من الأدب الرسالي الذي يمكنه أن يحقق هذا الهدف:

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ (٤)

وعلّم رسوله الاستغفار للمؤمنين كما علّم المسلمين أنفسهم الطريق لهذه المغفرة، حتىٰ تتطور هذه العلاقة بين الأُمة والقيادة:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) القلم: ٤.

(٣) التوبة: ١٢٨.

(٤) الاعراف: ١٩٩.

ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١)، **﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**(٢).

الأساس الرابع: الأخوّة الايمانيّة

إنّ الأُخوّة الايمانيّة تمثل بنظر القرآن الكريم اطار الوحدة الإسلاميّة لأنها تعطي هذه الوحدة شكلها الاجتماعي وقيمتها الانسانيّة، لأنّ الوحدة بين الأشياء المتعددة تحتاج الىٰ اطار واحد يجمعها فأما العرق والجنس أواللغة والقوم، أوالجغرافيا والأرض والتراب، أوالمصالح والمنافع، أوالقيم والمثل الانسانيّة والنظريّة القرآنيّة في هذا الاطار الواحد، تنطلق من هذا التصور الذي يقول: انّ البشريّة كلها من أصل واحد:

﴿يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وانثىٰ﴾(٣)،

فهي متحدة في أصل وجودها، كما أنّ المجتمع الإنساني كان واحداً باعتبار وجود هذا الأصل له، وهذه العلاقة الرحميّة: **﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ ...﴾**(٤).

والاختلاف بين بني الناس بسبب الظروف الحياتية والتعدد الشعوبي

---

(١) النساء: ٦٤.

(٢) النور:٦٢.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) البقرة:٢١٣.

والقبلي، انّما هو اختلاف طارئ، يراد منه تنظيم الحياة الانسانيّة والاجتماعيّة: ﴿**وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا**﴾ (١)

والاختلاف بسبب الأهواء وتنازع المصالح والمنافع وتدافع الغرائز والنزعات يمكن حله عن طريق الهدىٰ والرسالات والنبيين، والمبشرين والمنذرين...

ومن خلال الالتزام بهذه الحلول والأحكام والشرائع والحدود يتميز الإنسان المصلح من المفسد، والحسنة من السيئة، ﴿**انّ أكرمكم عِندَ الله أتّقاكم**﴾ (٢).

كما أنّ الاختلاف بسبب العقائد والدين، أوالشيطان والأوثان له مبرراته الواقعيّة التي تميّز الإنسان عن الإنسان الآخر، وتقسّم الناس الىٰ صنفين حقيقيين: ﴿**أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون**﴾ (٣).

وانطلاقاً من هذه النظرة كانت العلاقة الايمانية والأُخوّة الإسلاميّة: ﴿**انّ الدّين عند الله الإسلام**﴾ (٤)، هي العلاقة الّتي تمثّل الوحدة الحقيقيّة بين بني البشر جميعاً علىٰ اختلاف ألوانهم وألسنتهم وأقوامهم وقبائلهم وأماكن سكناهم، ومن هذا المنطلق نجد القرآن الكريم يقدّم هذا الاطار ضمن الأبعاد والخطوات التالية:

١- طرح مفهوم الأُخوّة الإسلاميّة بعيداً عن كل أسباب الفرق

---

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الحجرات:١٣.

(٣) السجدة:١٨.

(٤) آل عمران:١٩.

والاختلاف، غير الفرق والاختلاف علىٰ أساس التوحيد لله والالتزام بحدود الله وشرائعه:

﴿انّما المؤمنون أُخوة فأصلحُوا بَيْنَ أخويكم﴾(١)

﴿واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته إخواناً﴾(٢)

﴿أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾(٣)

وفي تحوّل علاقة العداء القائم بين المشركين والمسلمين الىٰ حالة الأُخوّة بمجرد التوبة واقام الصلاة وايتاء الزكاة: **﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلوٰةَ وَآتَوُاْ ٱلزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ * كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * ٱشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾**(٤)

---

(١) الحجرات:١٠.

(٢) آل عمران:١٠٣.

(٣) الحجرات:١٢.

(٤) التوبة:٥-١١.

ويبدومن مفهوم هذا الطرح، ومن بعض الاشارات القرآنيّة، أنّ هذا الطرح يقوم علىٰ أساس الربط بين علاقتين واعطاء احداهما دور الأُخرىٰ وهما:

أ - العلاقة الإنسانية (التوالديّة) ذات الطابع التعددي، وهي العلاقة بين الانسانين الذين يكونان من أب واحدٍ أومن امٍ واحدة قريبين أوبعيدين، والتي هي أقوى رابطة انسانيّة بشريّة بين متعددين يربطهما أصل واحد.

ب - العلاقة بين بني الإنسان الّتي تقوم علىٰ أساس الدين والمعتقد، والالتزامات والحدود الإلهيّة، التي جاءت بها الكتب والرسالات المنزلة.

فانّ القرآن الكريم لم يستخدم هذا المفهوم إلّا في هذين الصنفين من العلاقة، وربط في بعض الأحيان بينهما، وانتقل من احداهما الىٰ الأُخرىٰ، تعبيراً عن هذه الوحدة الاجتماعيّة[1].

﴿ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ

---

(١) لقد استخدم القرآن الكريم كلمة الأخ في الأخ للأبوين وللأب والأُم الواحدة، وفي موارد كثيرة، كما في قصة موسىٰ ويوسف وابني آدم وغيرها، كما استخدم الأخ في القوم كما في مثل قوله: ﴿واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه﴾ (الأحقاف: ٢١) وغيرها من الموارد المتعددة، أو﴿الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا﴾ (آل عمران: ١٦٨)، وفي موارد الأُخوّة في الدين سواء كانت إسلاميّة كما في الآيات المذكورة في المتن أوغير اسلامية كما في مثل ﴿ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين﴾ (الاسراء: ٢٧). ﴿واخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون﴾ (الاعراف: ٢٠٢) ﴿ألم تر الىٰ الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا﴾ (الحشر: ١١)، ومن خلال هذه الموارد يمكن أن نعرف أنّ مفهوم الأُخوّة امّا أن يراد منها الأُخوّة الرحميّة مع التوسعة فيها، بحيث تشمل الأب البعيد نسبياً، بحيث تبقىٰ الارتباطات القبليّة والقوميّة القريبة قائمة، أوالاخوّة الدينيّة والعقائديّة.

وَمَوَالِيكُمْ﴾ (١) .

ومن أجل اعطاء الصورة الرائعة والكاملة لهذا المفهوم في العلاقة الانسانيّة عندما تنعكس علىٰ المجتمع الانساني الصالح، نجد القرآن الكريم يطلق هذا المفهوم لتصوير العلاقة القائمة بين بني الإنسان في مجتمع الجنّة الذي يمثّل المجتمع التكاملي الأفضل في مسيرة الإنسان، عندما يصفهم في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ (٢).

٢- تأكيد قاعدة هذه الأُخوّة بتطوير العلاقة العقائديّة والايديولوجيّة الىٰ علاقة ذات بعد «نفسي» و«روحي» و«عملي»، من خلال التعبير عنها بعلاقة «الولاء»، وتترتب عليها حقوق وواجبات.

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٣) .

وقد جاء التأكيد علىٰ هذا المفهوم في آيات عديدة من القرآن الكريم، ولعلّ أكثرها تفصيلاً في هذا المجال قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ آوَواْ

---

(١) الاحزاب: ٥.

(٢) الحجر: ٤٥-٤٨.

(٣) التوبة: ٧١.

وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾[1].

بل قدمت هذه العلاقة الايمانيّة في القضية المعنوية على العلاقات الرحميّة الأُخرىٰ، كما يشير الىٰ ذلك قوله تعالى:

﴿...يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِ... * إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ... الآيات﴾[2].

كما قدمت علىٰ الاستحقاقات الاجتماعيّة والتاريخيّة مثل قوله تعالى:

﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3].

٣- انّ هذا الولاء بين المؤمنين، ينطلق من الولاء لله تعالىٰ ولرسوله، ويرتبط به، وعلىٰ أساسه تتكون الكتلة المسلمة في حركتها السياسيّة

---

(١) الأنفال:٧٢-٧٥.

(٢) آل عمران:٦٥-٦٨.

(٣) الانفال: ٣٤.

والاجتماعية، فالله سبحانه و تعالىٰ هو مولىٰ المؤمنين نعم المولىٰ ونعم النصير.

﴿الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الىٰ النور﴾[١].

﴿وَجَاهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[٢].

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَـٰوةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ* وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَالِبُونَ﴾[٣]

﴿ذلك بأنّ الله مولىٰ الذين آمنوا وانّ الكافرين لا مولىٰ لهم﴾[٤]

بل انّ الملائكة تنزل علىٰ هؤلاء المؤمنين، وتتحول الىٰ أولياء لهم، باعتبار هذه العلاقة الايمانية بالله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ* نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ...﴾[٥].

كما تمّ التأكيد بشكل واسع في القرآن الكريم علىٰ نفي ولاء الله تعالىٰ للكافرين والتبرّي منهم، بل نفي كل ولي لهم من دون الله في الدنيا والآخرة.

---

(١) البقرة: ٢٥٧.

(٢) الحج:٧٨.

(٣) المائدة: ٥٥-٥٦.

(٤) محمد:١١.

(٥) فصلت: ٣٠-٣١.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ ...﴾(١)

﴿والظّالمون مَا لَهُم من وَليّ وَلا نَصير﴾(٢)

﴿وَلَو قَاتَلَكُم الّذينَ كَفَروا لَوَلُّوا الأدبار ثمّ لا يَجِدُون وَليّاً وَلا نَصيراً﴾(٣)

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الأرض مِنْ وَلِي وَلا نَصير﴾(٤) .

﴿خَالِدينَ فِيها أبداً لا يَجِدُون وَليّاً ولا نَصيراً﴾(٥) .

٤- الدعوة الىٰ ترك جميع الولاءات الأُخرىٰ التي لاترتبط بالولاء الايماني، سواء العائلية أوالقبليّة منها، أوالجماعات الدينيّة الأُخرىٰ، فضلاً عن الكفّار والمشركين، وهذا الأمر يجعل محور الولاء الأصلي في الحياة الاجتماعية والسياسية هو الولاء الايماني، أي ولاء المؤمن لله تعالىٰ وللرسول وللمؤمنين.

﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَاتَتَّخِذُواْ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾(٦).

بل يشتد القرآن في هذا الموضوع، ويتصاعد التأكيد الىٰ المنع المطلق:

﴿يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَاتَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن

---

(١) العنكبوت: ٤١.

(٢) الشورىٰ: ٨

(٣) الفتح:٢٢.

(٤) التوبة: ٧٤.

(٥) الاحزاب: ٦٥.

(٦) النساء:١٤٤.

يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾[١] .

ويتسع هذا النهي ويشتد حتىٰ يشمل الآخرين أيضاً بل كل الحياة الإنسانية:

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ آبَآءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ۞ قُلْ إِن كَانَ آبَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَاسِقِينَ ﴾[٢].

ويقوّم القرآن الكريم هذه الدرجة العالية من الولاء لله وللمؤمنين بجانبيها الايجابي والسلبي، والتي تشكّل الاطار الحقيقي للجماعة الصالحة الموحدة في قوله تعالىٰ:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٣].

فإنّ هذه الآية الكريمة تكمل الصورة في الآيات الكريمة (٥١-٥٦) التي وردت في سورة المائدة، والتي اشرنا اليها آنفاً.

---

(١) المائدة: ٥١.

(٢) التوبة: ٢٣-٢٤.

(٣) المجادلة: ٢٢.

٥- ولم يترك القرآن الكريم قضية هذا المضمون للعلاقة المتمثّل بالولاء أمراً عاماً، بل تحدّث عن أبعاده ومواصفاته المختلفة، حيث تمت الاشارة في القرآن الكريم الىٰ ضرورة أن يتصف هذا الولاء بالحب والايثار والرحمة والتواضع والنصرة، ومن هنا يتحول هذا الولاء من مجرّد عاطفة قلبية الىٰ مضمون روحي واجتماعي وسياسي يصلح لأن يقوم علىٰ أساسه المجتمع الإسلامي الواحد ويمثل رباط الوحدة الإسلاميّة القويّة، قال تعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْكَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَٱلَّذِينَ جَآءُومِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوانِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) .

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانًا...﴾ (٢) .

﴿وَتَعاوَنُوا علىٰ البرّ والتّقوىٰ وَلا تَعاوَنُوا علىٰ الإثم وَالعدوان﴾ (٣).

﴿كُنتُم خَيرَ أُمّة أُخرِجَت لِلنّاس﴾ (٤).

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يأتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ...﴾ (٥) .

---

(١) الحشر: ٩-١٠.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) المائدة: ٢.

(٤) آل عمران: ١١٠.

(٥) المائدة:١٥٢.

﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ...﴾[١]

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢].

﴿ثُمّ جَاءَكُم رَسُول مُصَّدق لمَا مَعَكُم لتؤمنّن بِهِ ولتُنصرنّه﴾[٣].

﴿وَالّذينَ إذَا أَصَابَهُمْ البَغيِ هُم يَنتَصِرُون﴾[٤].

الأساس الخامس: القاعدة الأخلاقية

تشكل القضية الأخلاقيّة في النظرية الإسلاميّة قاعدة أساسيّة في مجمل التصور الإسلامي تجاه مختلف قضايا العقيدة والعلاقات الاجتماعيّة والسياسيّة، والتكامل الانساني الجماعي والفردي، في الدنيا والآخرة، بل يمكن أن نقول انّ محتوىٰ النظريّة الإسلاميّة العام، انّما هو محتوىٰ أخلاقي، كما ورد في ذلك الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «**انّما بعثت لأُتمم مكارم الأخلاق**»[٥].

ولذلك نجد القرآن الكريم يتحدث عن الأخلاق ليس في علاقة الإنسان مع أخيه الإنسان، وانّما في علاقة الإنسان بربّه بمختلف جوانبها، وفي علاقة الإنسان بالكون، ومسؤوليته تجاه نفسه، وفي مستقبل حياته.

---

(١) الأنفال: ٧٢.

(٢) الأعراف: ١٥٧.

(٣) آل عمران: ٨١.

(٤) الشورىٰ: ٣٩.

(٥) مستدرك الوسائل: ٢/٢٨٢.

ومن هذا المنطلق يمكن أن نعرف أنّ القاعدة الأخلاقيّة تشكّل أرضيّة أساسيّة لقضية الوحدة الإسلاميّة، وبالاضافة الىٰ هذا الجانب نجد القرآن الكريم يتحدث عن القضيّة الأخلاقيّة، في مجال وحدة المجتمع الإسلامي، ورسم معالم طبيعة العلاقات القائمة فيه بشكل خاص، وبالشكل الذي يجعله منيعاً عن تعرضه لمختلف أسباب الخلاف وعوامله، ويمكن أن نجد معالم القضيّة «الأخلاقية» فيما يتعلق بموضوع الوحدة الإسلاميّة في النقاط التالية:

أ - العهد والميثاق:

لقد أكّد القرآن الكريم علىٰ ضرورة الوفاء بالعهد والالتزام بالميثاق بشكل عام في جميع المجالات، ومع ذلك جاء التأكيد علىٰ ذلك في العلاقات الاجتماعية والسياسيّة كقضيّة أساسيّة وحتىٰ مع الأعداء، فضلاً عن المسلمين والمؤمنين، الأمر الذي يعني أنّ هذا الجانب الأخلاقي، يمثل قضيّة مهمة في حفظ وبقاء وحدة المجتمع، ويمكن أن نتبيّن هذه الصورة بابعادها المختلفة من خلال هذه الآيات الكريمة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟

أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢).

﴿... إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ... ۞ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ...﴾ (٣).

فإنها توضح أهيمة العهد في العلاقات السياسيّة الدوليّة.

ب - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يعتبر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم القضايا الأخلاقية التي تحفظ وحدد المجتمع والأُمّة، كما يعبّر عملياً عن الاحساس بالمسؤليّة تجاه المجتمع والأُمّة ضمن الاطار الواحد، والتكامل في الحركة والالتزام.

ومن هذا المنطلق جاء التأكيد على هذا الأمر في سياق الأمر بالوحدة وعدم التفرق في التعبير عن ذلك بالامّة الواحدة.

---

(١) النحل: ٩٠-٩٤.

(٢) الانعام: ١٥٢-١٥٣.

(٣) التوبة: ٤-٧.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ *... كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...﴾(١).

ولقد جاء وصف الجماعة الإسلاميّة في وحدتها وترابطها وولائها بـهذا الوصف في عدة موارد من القرآن الكريم:

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾(٢)

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ...﴾(٣).

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ ...﴾(٤).

ج - الحكم بالقسط والعدل:

لا شك أنّ القسط والعدل في الامّة يمثّل قاعدة أخلاقيّة وسياسيّة تحفظ وحدة المجتمع، ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد علىٰ هذا الجانب في حفظ

---

(١) آل عمران: ١٠٤-١١٠.

(٢) الحج: ٤١.

(٣) التوبة:٧١.

(٤) الاعراف: ١٥٧.

وحدة المجتمع، والمنع من وقوع الخلافات أو تصاعدها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ (١) .

حيث جاءت هذه الآية الكريمة كتمهيد لبيان ما ذكرته الآية التالية في الرد الىٰ الرسول عند التنازع:

﴿فان تنازعتم في شيء فردّوه الىٰ الله والرسول﴾ (٢).

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداء لله ولو علىٰ أنفسكم أوالوالدين والأقربين ان يكن غنياً أوفقيراً فالله أولىٰ بهما، فلا تتبعوا الهوىٰ أن تعدلوا وان تلووا أن تعرضوا فانّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ (٣) .

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدّين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم انّ الله يحب المسقطين﴾ (٤).

﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾ (٥).

د - التعاون علىٰ البرّ والتقوىٰ:

لقد حرص القرآن الكريم في سبيل تحكيم الوحدة بين ابناء الامّة وأفراد المجتمع الإسلامي، أن يبني العلاقات القويّة ذات الأهداف الصالحة، ومن هنا

---

(١) النساء:٥٨.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) النساء: ١٣٥.

(٤) الممتحنة:٨.

(٥) المائدة: ٢.

جاء التأكيد علىٰ عدّة قضايا مهمة في هذا المجال، منها التأكيد علىٰ التعاون وعلىٰ البرّ والتقوىٰ:

﴿وتعاونوا علىٰ البرّ والتقوىٰ ولا تعاونوا علىٰ الإثم والعدوان...﴾[1].

ومنها التأكيد علىٰ التواصي بالحق والصبر والمرحمة.

﴿إلّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[2]

﴿ثمّ كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾[3].

ومنها النهي عن الاثم والعدوان والافساد في الأرض، ووضع عقوبات رادعة لهذه المخالفات المضرة بالوحدة بين المسلمين، والتي تنتهي الىٰ التفرق والتنازع والاختلاف:

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا انّ الله لا يحب المعتدين﴾[4].

ويبدو من القرآن الكريم انّ أوضح مصاديق الفساد في الأرض الذي جاء النهي عنه في القرآن في موارد عديدة، هو زرع الشقاق والاختلاف والفرقة في المجتمع.

ولذلك جاء هذا القدر من التأكيد والردع عن هذا الافساد:

﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد اصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً انّ رحمة الله قريب من المحسنين﴾[5].

---

(١) المائدة:٢.

(٢) العصر:٣.

(٣) البلد: ١٧.

(٤) البقرة: ١٩٠.

(٥) الاعراف: ٥٦.

﴿انّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم انّه كان من المفسدين﴾[١].

﴿واذا تولّى سعىٰ في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾[٢].

﴿انّما جزاءُ الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾[٣].

هـ ـ اشاعة الخير والبر:

انّ اشاعة الخير والبر والصلاح يمثل بعداً آخر في الأرضيّة الأخلاقيّة ولعلّ هذا المفهوم القرآني من أوسع المفاهيم والمصطلحات القرآنيّة استعمالاً في مجال العمل الأخلاقي، فالايمان بالله، واليوم الآخر، والعبادة، من الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، والجهاد في سبيل الله، والانفاق، والبذل، والصدقة، والمغفرة، وقول المعروف، والاصلاح بين الناس، والصبر... الىٰ غير ذلك من القضايا المرتبطة بالتكامل البشري، والأخلاق العالية والطاعة لله تعالى، كل ذلك من ابواب الخير، ولذلك جاء النداء القرآني بالدعوة الىٰ الخير في آيات عديدة، تقدمت الاشارة الىٰ بعضها، بل انّ بعضها جاء في سياق

---

(١) القصص: ٤.

(٢) البقرة: ٢٠٥.

(٣) المائدة: ٣٣.

الحديث عن الاختلاف بسبب اتباع الهوىٰ، وانّ الحل الفاصل انما هو الاستباق الىٰ الخيرات.

﴿وأنزلنا اليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم امّة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات الىٰ الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾(١)

﴿وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾(٢)

البعد الثاني: وسائل تحقيق الوحدة الإسلاميّة

لم يكتف القرآن الكريم بتشخيص الأُسس التي تقوم عليها الوحدة في المجتمع الإسلامي، بل اهتمّ الىٰ جانب ذلك بالأساليب والمناهج والوسائل التي يمكن أن تتبع لتحقيق هذه الوحدة وبهذا الصدد لابد أن نشير الىٰ أنّ الاسس التي تحدّثنا عنها في البعد الأول، تمثل في جانب آخر منها وسائل لتحقيق الوحدة أيضاً، ولكنها وسائل وقائيّة تمنع أوتساهم في المنع من حدوث الاختلاف والتنازع، فالطاعة لله وللرسول ﷺ والرد اليه، وكذلك رعاية القيادة للامّة والتعامل معها باسلوب اللين والرحمة، كلها وسائل لحفظ الوحدة الإسلاميّة، وأيضاً من هذه الوسائل هو الحكم بالعدل والقسط بين الرعيّة،

---

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) الانبياء: ٧٣.

أوفي معالجة الإدعاءات المتضادّة في الحياة الاجتماعية، وأمّا الوسائل التي نريد الاشارة اليها في هذا البعد، فهي وسائل علاج في حالة ظهور الاختلاف والنزاع، فهي في الحقيقة، قواعد وضوابط ومناهج عمليّة وضعها الإسلام للمعالجة، بعد ظهور الخلافات في المجتمع الإسلامي، سواء علىٰ المستوىٰ الفردي أوالجماعي.

وفي هذا المجال نشير الىٰ مجموعة من الوسائل التي تحدَّث عنها القرآن الكريم في مقام تحقيق الوحدة والوفاق بين أبناء المجتمع الانساني والإسلامي.

الأول: الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة

في بحث الوحدة والاختلاف عرفنا بأنَّ الناس كانوا اُمّة واحدة، ثم كان الاختلاف بينهم بسبب الهوىٰ وتضاد المصالح والمنافع والأهواء الخاصة بينهم،كما أنَّه في مرحلة متأخرة حصل الاختلاف، بسبب عدم وضوح الرؤية، فجاءت الرسالات الإلهيّة والانبياء، لحل هذا الخلاف والنزاع، ثمَّ جاءت مرحلة اُخرىٰ فكانت الاجتهادات الخاطئة في تفسير الدين، وحصل الاختلاف بسب ذلك.

وفي كل هذه المراحل كان هناك دور للطغيان والطغاة في تمزيق شمل الناس، وزرع الاختلافات بينهم.

وقد اعتمد القرآن الكريم والإسلام العظيم في معالجة كل هذه الحالات الىٰ أساليب ثلاثة رئيسيّة:

أ- دعوة الإنسان الىٰ الرجوع الىٰ العقل والتدبُّر والتفكير.

ب- الإعتماد في الوصول الىٰ الحقائق علىٰ الحجة والدليل والبرهان.

ج - الجهاد في سبيل الله لمواجهة الطغاة والجبابرة الذين يستخدمون القوّة لقهر الناس علىٰ الضلال.

ومن خلال هذه النظرة الكليّة الىٰ موضوع الاختلاف، ومعالجة أسبابه نجد دور الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فانّها تأتي كاسلوب في مخاطبة العقل، وايجاد أرضية التفكير والتدبُّر حيث يمكن السيطرة علىٰ العواطف والمشاعر والأحاسيس، ويتغلب العقل علىٰ الهوىٰ، وجانب المصلحة الحقيقيّة الدائمة والعامّة المتمثل بمصالح المجتمع والإنسان في مستقبل حياته الأُخرويّة علىٰ جانب المصلحة الآنيّة للفرد:

﴿ادعُ الىٰ سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن...﴾(١)

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليٌ حميم﴾.(٢)

﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إنَّ الشيطان ينزغ بينهم إنَّ الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾.(٣)

---

(١) النحل: ١٢٥.

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) الإسراء: ٥٣.

الثاني: الصلح والمساعي الحميدة

ويأتي - أيضاً - في صراط الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة المساعي الحميدة التي يمكن أن يبذلها العقلاء والحكماء والمخلصون في سبيل تحقيق الصلح والوفاق والانسجام بين الأطراف المختلفة، فانَّ هذه المساعي تصبُّ في نفس الاتجاه الذي تحققه الموعظة الحسنة في مخاطبة العقل، وتهدئة الخواطر، وممارسة الضغوط الأدبيّة والأخلاقيّة والنفسيّة للسيطرة علىٰ المشاعر والأحاسيس وقد أكّد القرآن الكريم في عدة موارد علىٰ هذا الاسلوب ودعا لممارسته سواء علىٰ مستوىٰ الخلافات ذات الطابع الفردي، كما في مجال الأُسرة، أوالخلافات علىٰ المستوىٰ الجماعي عند ما تقع بين القبائل والجماعات:

﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال للّه والرسول فاتقوا اللّه وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا اللّه ورسوله ﴾.[1]

﴿ وإنْ إمرأةٌ خافت من بعلها نشوزاً أوإعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خيرٌ وأُحضرت الأنفس الشح ﴾.[2]

﴿ وانْ خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا اصلاحاً يوفّق اللّه بينهما إنَّ اللّه كان عليماً خبيراً ﴾.[3]

---

(1) الانفال: ١.

(2) النساء: ١٢٨.

(3) النساء: ٣٥.

﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلُحوا بينهما...﴾.[١]

﴿إنّما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا اللّٰه لعلكم تُرحمون﴾[٢]

الثالث: العفو والصفح

والىٰ جانب الاسلوبين الماضيين، يأتي العفو والصفح كاسلوب لحفظ الوحدة، ومعالجة قضايا النزاع والخلاف وأسبابه، ذلك انَّ الصفح والعفو كما هو قضية أخلاقيّة كذلك هو اُسلوب للمحافظة علىٰ الوئام، وارجاع الأُمور الىٰ أوضاعها الطبيعيّة، واعطاء الفرصة مرةً اخرىٰ للعودة الىٰ الانسجام والتلاحم.

وينطلق هذا المبدأ والاسلوب من مبدأ التوبة والمغفرة الإلهيّة الذي فتحه الله سبحانه وتعالىٰ لعباده من أجل اعطاء فرصة للعبد لأن يرجع الىٰ طريق الله والتكامل والانابة الىٰ الحق والهدىٰ والصلاح:

﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره علىٰ الله انّه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل * انّما السبيل علىٰ الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر انّ ذلك لمن عزم الأُمور﴾[٣].

﴿ولا يأتل اولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا اولي القربىٰ والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبّون أن يغفر اللّٰه لكم واللّٰه غفور رحيم﴾[٤].

---

(١) الحجرات: ٩.

(٢) الحجرات: ١٠.

(٣) الشورىٰ: ٤٠-٤٣.

(٤) النور: ٢٢.

﴿وان طلقتموهنّ من قبل أن تمسوهنّ وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلّا أن يعفون أويعفو الذي بيده عقدة النكاح وان تعفوا أقرب للتقوىٰ ولا تنسوا الفضل بينكم انّ الله بما تعملون بصير﴾(١)

الرابع: الوقوف في وجه العدوان

انّ الطغيان والعدوان أحد الأسباب المهمة للاختلاف والفرقة خصوصاً اذا تحوّل الطغيان الىٰ حالة اجتماعية عامّة من خلال الوضع الثقافي للامة، والممارسة الطويلة في المجتمع أومن خلال وجود مؤسسة قويّة تقوم علىٰ الطغيان كالحاكم الطاغية أوالجيش أوالدولة، والذي يؤدي عادة اما الىٰ تمزيق الامّة المحكومة نفسها، اووجود الاختلافات والنزاعات بين أبناء الامّة أنفسهم، وهذا ما عرفته البشريّة في تاريخها من ظاهرة الحروب والمعارك والاقتتال فضلاً عن الألوان الأُخرىٰ من الطغيان.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الموضوع، ووضع له المعالجات المناسبة، سواء علىٰ مستوى الجماعات والامم، أوعلىٰ مستوىٰ الامّة الإسلاميّة نفسها، فعلىٰ المستوىٰ الأول:

أ - قرر القرآن الكريم أنّ الحرب لا يصح أن يبدأ بها المسلمون إلّا دفاعاً عن النفس، ومواجهة للعدوان علىٰ الدين والحرمات:

﴿اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وانّ الله على نصرهم لقدير * الذين اخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلّا أن يقولوا ربّنا الله ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع

---

(١) البقرة:٢٣٧.

وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرنّ الله من ينصره انّ الله لقويّ عزيز﴾(١).

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا انّ الله لا يحب المعتدين*...الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدىٰ عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدىٰ عليكم واتقوا الله واعلموا انّ الله مع المتقين﴾(٢).

ب - اعتبر القرآن الكريم الفتنة، والاخراج من الديار، وممارسة الارهاب من أجل اجبار الناس علىٰ الكفر والانحراف في العقيدة لوناً من ألوان الحرب والعدوان:

﴿يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتىٰ يردّونكم عن دينكم ان استطاعوا﴾(٣).

ج - اعتبر اضطهاد الإنسان والعدوان علىٰ حقوقه الانسانيّة الأساسيّة لوناً من ألوان الحرب غير المعلنة، والتي تبرر القتال والدفاع عن النفس وعن المستضعفين:

﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدنك نصيراً﴾(٤).

---

(١) الحج:٣٩-٤٠.

(٢) البقرة: ١٩٠-١٩٤.

(٣) البقرة: ٢١٧.

(٤) النساء:٧٥.

د - أكّد الإسلام والقرآن الكريم انّه اذا انتفت هذه المبررات فلا داعي للحرب، بل لابدّ أن يعم السلم والسلام والهدوء، ما لم تؤكّد جميع الدلائل علىٰ أنّ العدو يريد أن يستفيد من فرصة السّلم للانقضاض مرة اخرىٰ علىٰ المسلمين أونقض المواثيق والعهود معهم.

﴿إلّا الذين يصلون الىٰ قوم بينكم وبينهم ميثاق أوجاءوكم حصرت صدروهم أن يقاتلوكم أويقاتلوا قومم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السّلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً﴾(١)

﴿ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردّوا الىٰ الفتنة اركسوا فيها فان لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السّلم ويكفّوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم واولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾(٢)

كما تعالج الآيات الأربع الاولىٰ في أول سورة التوبة هذا الموضوع بشكل تفصيلي والتي تختتم بقوله تعالىٰ:

﴿ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا باخراج الرسول وهم بدؤكم أول مرّة أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه ان كنتم مؤمنين﴾(٣)

وأمّا علىٰ مستوىٰ الامّة الإسلاميّة نفسها فانّ النزاعات تعالج في البداية بالعفو أوالصلح والمساعي الحميدة، كما أشرنا سابقاً، فاذا أصرّ أحد الجانبين علىٰ تأجيج الصراع واستمراره فلابدّ من النظر الىٰ الموضوع من خلال قوانين

---

(١) النساء: ٩٠.

(٢) النساء: ٩١.

(٣) التوبة: ١٣.

وقواعد القسط والعدل والوقوف حينئذ في وجه المعتدي، والى جانب المعتدىٰ عليه، وايقاف المعتدي عن عدوانه، فاذا بغىٰ علىٰ الحقّ والعدل، فلابدّ من قتاله حتىٰ يرجع الىٰ الحق ويلتزم به.

وقد أوضحت آيتا سورة «الحجرات» هذا الموقف بشكل واضح:

﴿وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما علىٰ الأُخرىٰ فقاتلوا التي تبغي حتىٰ تفيء الىٰ أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا انّ الله يحب المقسطين * انّما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾(١).

وفي مجال القضايا والأحوال الشخصيّة قوله تعالى:

﴿واذا طلّقتم النساء فبلغن أجلهنّ فأمسكوهنّ بمعروف أوسرحوهنّ بمعروف ولا تمسكوهنّ ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً...﴾(٢)

﴿ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل * انّما السبيل علىٰ الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق اولئك لهم عذاب أليم﴾(٣).

الخامس: الاعتماد علىٰ العلم في معالجة الحوادث

لقد عرفنا أنّ أحد أسباب التنازع والفرقة هو الاجتهادات الخاطئة والاعتماد علىٰ الشبهات والظنون الآثمة، ولذا نجد القرآن الكريم يعالج هذا

---

(١) الحجرات: ٩-١٠.

(٢) البقرة: ٢٣١.

(٣) الشورى: ٤١-٤٢.

السبب من الفرقة والاختلاف بالدعوة الىٰ اعتماد العلم والبيّنة في معرفة الحقائق، والنهي عن اعتماد الظنون والاحتمالات والشبهات، وأنكر علىٰ المشركين والكفّار من أهل الكتاب اتباعهم للظنون في معالجة القضايا الحياتيّة المهمة، ودعاهم الىٰ الرجوع الىٰ أهل العلم والذكر عند عدم العلم:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأٍ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾[1].

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن انّ بعض الظنّ اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه... ﴾[2].

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم انّ السمع والبصر والفؤاد كلّ اولئك كان عنه مسؤولاً ﴾[3]

﴿ فسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون * بالبينات والزبر... ﴾[4]

﴿ وقولهم انّا قتلنا المسيح عيسىٰ بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم وانّ الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلّا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً ﴾[5].

﴿ ومنهم اميّون لا يعلمون الكتاب إلّا أماني وان هم إلّا يظنّون ﴾[6]

﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله

---

(١) الحجرات:٦.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) الاسراء: ٣٦.

(٤) النحل: ٤٣-٤٤.

(٥) النساء: ١٥٧.

(٦) البقرة:٧٨.

يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[١].

بل اهتم القرآن الكريم في بعض القضايا المهمّة كالقضايا الماليّة، والوصايا الّتي تكون مورداً للنزاعات في كثير من الأحيان، فأمر فيها بالكتابة والاشهاد، منعاً لهذه النزاعات والاختلافات.

وبهذا الصدد جاءت الآية «٢٨٢» من سورة البقرة التي تؤكّد علىٰ كتابة الدين، حيث جاء التأكيد والتعليل لهذا الحكم بقوله تعالىٰ:

﴿ولا تسئموا أن تكتبوه صغيراً أوكبيراً الىٰ أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنىٰ أن لا ترتابوا...﴾ .

﴿وابتلوا اليتامىٰ حتىٰ اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم...فاذا دفعتم اليهم أموالهم فاشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً﴾[٢] .

﴿فاذا بلغن أجلهنّ فامسكوهنّ بمعروف أوفارقوهنّ بمعروف واشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله...﴾[٣].

﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدلٍ منكم أواخران من غيركم...ذلك أدنىٰ أن يأتوا بالشهادة علىٰ وجهها أويخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم...﴾[٤].

كما تناول القرآن الكريم قضية الاشاعات والأراجيف التي يبثها أعداء الامّة الداخليين، أوالجهلة وضعاف النفوس، والّتي تهدد المجتمع الإسلامي

---

(١) آل عمران:٦٦.

(٢) النساء:٦.

(٣) الطلاق:٢.

(٤) المائدة:١٠٦-١٠٨.

بالاختلاف والتمزّق والضعف، ونجد مثالاً علىٰ ذلك في قضية حديث الافك:

﴿انّ الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولّىٰ كبره منهم له عذاب عظيم * لو لا اذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا افك مبين *...اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم... انّ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾[1].

بل انّ القرآن الكريم يتخذ موقفاً مشدداً من هؤلاء المرجفين وأصحاب الاشاعات، بعد أن يشخصهم في طبيعتهم كما جاء في سورة الأحزاب:

﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلّا قليلاً * معلونين أينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلاً * سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾[2].

وهذه الآية الكريمة تناولت موضوعات متعددة عقائديّة واجتماعيّة وسياسيّة وشخصيّة، الأمر الذي يعني أنّ هذا الاسلوب في المعالجة له أهميّة كبيرة تنعكس علىٰ مختلف المجالات ذات العلاقة بالوحدة الإسلاميّة، وظواهر التنازع والاختلاف.

---

(١) النور: ١١-١٩.

(٢) الاحزاب: ٦٠-٦٢.

السادس: التعامل علىٰ أساس ظاهر الإسلام

ومن الوسائل التي استخدمها القرآن الكريم لمعالجة النـزاع والخلاف، التعامل علىٰ أساس ظاهر الإسلام، وعدم التفتيش في العقائد والنيّات، وهذا المبدأ يعتبر من أهم المبادئ التي يمكن من خلالها معالجة قضيّة الاختلافات المذهبيّة والعقائديّة، بين أبناء الامّة الإسلاميّة:

﴿يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا ولا تقولوا لمن ألقىٰ اليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم فتبيّنوا انّ الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [(١)].

﴿ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل اذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم﴾ [(٢)]

وفي هذه الحال يأتي النهي عن «التجسس» و«الغيبة» التي هي عبارة عن كشف عيوب وأسرار المؤمنين فانّ ذلك يأتي في صراط التعامل علىٰ أساس الظاهر وعدم التفتيش عن العيوب، ما لم تتحول الىٰ أعمال ونشاطات تخريبيّة ضارة بالمجتمع،

وبهذه الطريقة كان يتعامل النبي ﷺ مع أبناء المجتمع الإسلامي، وكان فيهم الكثير من المنافقين ومرضىٰ القلوب وضعفاء النفوس، حتىٰ تصاعد نشاطهم الهدّام والمعادي واتضحت مواقفهم، من خلال المواقف والأعمال،

---

(١) النساء: ٩٤.

(٢) التوبة: ٦١.

فصرّح القرآن الكريم بالحديث عنهم وعن سلوكهم، كما تحدّثنا بذلك سورة التوبة.

البعد الثالث: النتائج والآثار

علىٰ ضوء الاستعراض السابق للأُسس التي تقوم عليها الوحدة الإسلاميّة في المجتمع الإسلامي، والوسائل التي وضعها القرآن الكريم لتحقيق هذه الوحدة، يمكن أن نتعرّف علىٰ النتائج والآثار التي يمكن أن تترتب علىٰ هذه الوحدة، والتي يمكن اجمالها في نقطتين رئيسيتين:

الأُولى: انّ الوحدة الإسلاميّة تحقق القوّة والمنعة للمجتمع الإسلامي، في مواجهة جميع المشاكل والأزمات، التي يمكن أن يتعرّض لها المجتمع الإسلامي والجماعة الإسلاميّة وخصوصاً في مواجهة الأعداء الخارجيين.

وقد تمّ التأكيد في القرآن الكريم علىٰ أنّ الوحدة هي مصدر للقوّة، وأنّ الاختلاف والتنازع هو سبب للفشل والضعف، حيث جاء في سورة الأنفال في معرض الحديث عن المعركة الاولىٰ، التي خاضها المسلمون مع المشركين، وهي معركة «بدر»، حيث كانت نسبة عدد المسلمين للمشركين أقلّ من الثلث، بالاضافة الىٰ تفوّق المشركين علىٰ المسلمين في العدّة والسلاح والتدريب والممارسة، وما حققه الله تعالىٰ لهم من نصر...وعن أهمية الوحدة في هذه المواجهة، قال تعالىٰ:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا

الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا انّ الله مع الصابرين﴾[1].

حيث دعاهم الىٰ وحدة الكلمة من خلال الطاعة لله وللرسول ونهاهم عن التنازع الذي يؤدّي حتماً الىٰ الفشل والضعف وذهاب الريح الذي هو كناية عن ذهاب الصولة والقوة والدولة.

كما يبدو من القرآن الكريم انّ أحد أساليب العذاب الّتي ينزلها الله سبحانه وتعالىٰ في الامم الضالة والمنحرفة، هو وقوع النزاع والخلاف بينها، وتطور هذا النزاع الىٰ الحرب والاقتتال.

﴿قل هو القادر علىٰ أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً، ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾[2].

كما أنّ القرآن الكريم يتبرأ من القوم الذين تفرّقوا في الدين والمنهج، بحيث أصبحوا جماعات ممزّقة:

﴿انّ الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء انّما أمرهم الىٰ الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾[3]

ويؤكد ذلك في سورة الروم عندما يأمر بالتزام الدين القيّم والابتعاد عن المشركين الذين تفرقوا في دينهم وكانوا شيعاً وأحزاباً، قال تعالىٰ:

﴿... ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كلّ حزب بما لديهم فرحون﴾[4].

---

(١) الانفال: ٤٥-٤٦.

(٢) الانعام: ٦٥.

(٣) الانعام: ١٥٩.

(٤) الروم: ٣١-٣٢.

وبهذا نعرف انه بالاضافة الىٰ أنّ الوحدة هي مصدر وسبب للقوة، فان الاختلاف يكون سبباً:

أ - لهدر الطاقات، والضعف، وذهاب الصولة والقوة والدولة، واشاعة الاضطراب والفساد.

ب - للبعد من الله تعالىٰ، والغضب الالهي والبراءة من الجماعة.

ج - لنزول العذاب من الله تعالىٰ، بل هو لون من ألوان العذاب والانتقام.

الثاني: انّ الوحدة الإسلامية تمثّل نتاجاً طبيعياً للتكامل الانساني وتعبيراً عن تطور المجتمع الإسلامي وصلاحه، حيث نجد من خلال حديث القرآن الكريم عن اسس الوحدة ووسائلها أنّ مجتمع الوحدة هو:

أ - مجتمع التوحيد الخالص لله تعالىٰ.

ب - مجتمع القانون والحكم الشرعي الالهي والطاعة لله وللرسول.

ج - مجتمع العلاقة والارتباط الوثيق، والولاء الصادق بين الحاكم والحكومة، والامّة والقيادة.

د - مجتمع علاقات الود والحب بين المسلمين وتآلف القلوب.

هـ - مجتمع الأخلاق الفاضلة، والتكامل الروحي والمعنوي.

و - مجتمع الجماعة التي تتبع منهج العقل والحكمة والعلم.

ز - مجتمع الشعور بالمسؤوليّة الإلهيّة والانسانيّة والتكامل والتضامن، في تحملها والجهاد من أجل مواجهة الظلم والعدوان وتحقيق المثل والقيم.

ولا شك انّ مثل هذه الصورة تمثل التكامل الاجتماعي في مسيرة الإنسان، فالوحدة الإسلاميّة ليست مجرد شعار يطرحه المسلمون لتحقيق

غاية نبيلة، وخلاص من الاضرار المترتبة علىٰ الاختلاف، وانّما تمثل الوحدة من خلال هذه الرؤية هدفاً اسلامياً وانسانياً يرتبط بمجمل الأهداف الأساسيّة للدين وللرسالة الإسلاميّة، لأنّ هذه الوحدة لا يمكن أن تتحقق بدون هذه الأسباب والعوامل والاسس، وبدون هذه الوسائل والمناهج، فهي تعبير عن المجتمع الانساني الفاضل الذي دعىٰ اليه الإسلام، وعمل من أجله الرسول محمد ﷺ، وأهل بيته الطاهرين وأصحابه المنتجبين، وجميع السلف الصالح من المسلمين.

وبذلك تصبح الوحدة ضرورة من ضروريات الحياة الاسلامية، وواجباً شرعياً لجميع المسلمين المخلصين.

الباب الثاني

الوحدة الإسلاميّة في نظرية أهل البيت عليهم السلام

عندما نريد أن نتحدث عن الوحدة الإسلاميّة في نظرية أهل البيت عليهم السلام، نحتاج الىٰ دراسة واسعة وشاملة، لأنّ هذه القضية من القضايا الأساسيّة والمهمة، والتي واجهها أهل البيت عليهم السلام منذ الصدر الأول للاسلام، وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل مباشر، حيث كانت قضية خلافة الرسول، وما تشعب عنها من مسائل مثاراً للخلاف بين الصحابة، وبالأخص بين علي عليه السلام ومؤيديه من كبار الصحابة، أمثال العبّاس بن عبد المطلب، والزبير بن العوام، وسلمان الفارسي، وابوذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وحذيفة بن اليمان، والزهراء البتول، وأم أيمن، وأم سلمة، وغيرهم، من جانب والخليفة أبوبكر وعمر بن الخطّاب وجمهور الأصحاب الذين بايعوا أبابكر في السقيفة من المهاجرين والأنصار.

واستمرت هذه القضيّة وآثارها وتبعاتها في طول عهود الأئمة الاثني عشر التي استغرقت الخلافة الراشدة، والخلافة الأمويّة، والىٰ أواسط الخلافة العبّاسيّة وفي منتصف القرن الثالث الهجري، وحتىٰ غيبة الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف.

وفي كلّ هذه العهود والادوار، كان الأئمة يواجهون هذه الأحداث من خلال منهج عملي متكامل بشكل نظرية شاملة، والتي تحتاج بطبيعة الحال الىٰ دراسة مستوعبة، ولكننا هنا نحاول أن نرسم الخطوط العامّة لهذه النظريّة

ومعالمها الأساسيّة، مع ذكر بعض الشواهد عليها تاركين التفصيل والاستيعاب وذكر الأدلّة والقرائن الكاملة الىٰ دراسة اخرىٰ.

وسوف نجد ان شاء الله أنّ هناك نظريّة رائعة وعظيمة طرحها أئمة أهل البيت عليهم السلام للوحدة الإسلاميّة، تتسم بالواقعيّة والمصداقيّة والتجربة الحقيقة، والمعاناة، والقدرة علىٰ الصبر والتحمّل والسيطرة علىٰ العواطف والاحاسيس، وتحكيم منهج القرآن والحكمة والعقل، وتقديم المصلحة الإسلاميّة العليا علىٰ جميع المصالح الثانويّة الأُخرىٰ.

الوحدة والاولويات الإسلاميّة

لا شك أنّ النظريّة الإسلاميّة نظرية متكاملة وشاملة لجميع مناحي الكون والحياة الانسانيّة تتناول في شمولها العقيدة (الله والوحي والنبوة والحياة الدنيا واليوم الآخر) كما تتناول الإنسان في حياته الفرديّة والاجتماعيّة، وقضيّة الحكم والامامة، وتتناول الأخلاق والسلوك الشخصي للانسان في علاقته بربّه، أوأخيه الإنسان، أوعلاقته بالكون والحياة، والعبادة، والاسرة، والتجارة... الخ.

وكل هذه القضايا هي قضايا ذات علاقة بالنظريّة الإسلاميّة وجاء بها الوحي الالهي، وتناولها القرآن الكريم والسنّة النبويّة.

ولكن بالرغم من هذه الشموليّة والانتساب للاسلام يمكن أن نلاحظ أنّ النظرّية الإسلاميّة تؤكد وتهتم ببعض المفردات وتعطيها درجة من الأهميّة والاولويّة، بحيث تختلف في ذلك عن مفردات اخرىٰ.

فمثلاً نجد أنّ الشرك بالله لايغفر للانسان، بخلاف الذنوب والمعاصي

الأُخرىٰ، فانها تقبل المغفرة والعفو الالهي، وهكذا الحال في بعض الواجبات الإسلاميّة،كالصلاة التي تحظىٰ باهتمام من الإسلام اكبر من الاهتمام بواجبات اخرىٰ، مثل وجوب دفن الميت أوردّ السلام.

والسؤال بعد هذه المقدمة هو: ما هي أهم الأولويات بين الواجبات والمفردات الإسلاميّة في نظر أهل البيت عليهم السلام وما هو موقع الوحدة الاسلاميّة من هذه الاولويات؟

١- العقيدة الإسلاميّة

لا شك أنّ أول المفردات في سلّم الاولويات في نظر أهل البيت عليهم السلام، هي مفردة (العقيدة الإسلاميّة)، والايمان بالله تعالىٰ والنبوة واليوم الآخر، حيث تتقدم هذه المفردة علىٰ جميع المفردات الأُخرىٰ، لأنّ الهدف الأساس من ارسال الرسل والنبوّات انّما هو دعوة الناس الىٰ هذه العقيدة، وبهذه العقيدة يتميّز الإنسان المؤمن عن غيره من الناس، وعندما تتعرض قضية الايمان بالله تعالىٰ الىٰ الخطر تصبح هذه القضيّة هي الاولىٰ الّتي تتقدم علىٰ جميع القضايا، والتي يصح التنازل من أجلها عن جميع الحقوق والتخلّي عن جميع الواجبات عداها.

ولعلّ هذا المبدأ هو الذي كان يحكم موقف الإمام علي عليه السلام في سكوته تجاه قضيّة الخلافة، علىٰ ماتشير الىٰ ذلك بعض الروايات[1] حيث كان يدرك

---

(١) فقد ورد في نهج البلاغة أنه عليه السلام قال: «فأمسكت يدي حتىٰ رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، ←

بأن الحركة السياسية المسلحة المضادّة قد تؤدي الىٰ تعرض الرسالة الاسلامية الىٰ الخطر، خصوصاً اذا أخذنا بنظر الاعتبار الأجواء السياسيّة والأمنية التي كانت تحيط هذا الكيان السياسي الجديد، والحركات المضادة كحركة مسيلمة الكذّاب، وحركات الردّة والتمرد الأُخرىٰ التي شهدها عصر الخليفة الأول، ولذا اكتفىٰ الإمام علي عليه السلام بالسكوت والامتناع عن البيعة لفترة معينة لمجرد تسجيل الموقف السياسي.

كما أن هذه القضية هي التي تفسر تصدّي الإمام الحسين عليه السلام لتولي (يزيد) لأُمور المسلمين، حيث كان هذا الأمر يؤشر الىٰ عدة قضايا خطيرة، أحدها يتمثل بقضية الارتداد عن الإسلام بالشكل الذي يهدد العقيدة والرسالة الإسلاميّة، لأنّ الطريقة التي تمّ بها اختيار (يزيد)، والثقافة السياسيّة العامّة التي بثها معاوية بين المسلمين، والتي تعطي الشرعيّة لقمع أي حركة سياسيّة مضادة، حتىٰ لو لم تكن مسلّحة، والتي جنّد لها مجموعة من المرتزقة ووضّاع الحديث، وأصحاب القلوب المريضة، بالاضافة الىٰ شخصيّة يزيد المعروفة باستهتارها بكل القيم والمثل والأعراف الإسلاميّة، والتي تكشفت بعد ذلك بشكل واضح في «مجزرة كربلاء»، واستباحة المدينة المنوّرة، وفي الاعتداء علىٰ الحرم المكّي، وضرب الكعبة المشرّفة بالمنجنيق، وقتل خيرة الصحابة وأبنائهم، وأخذ البيعة منهم علىٰ أنّهم عبيد ليزيد بن معاوية.

← يدعون الىٰ محق دين محمد صلى الله عليه وآله فخشيت ان لم أنصر الإسلام وأهله أن أرىٰ فيه ثلماً أوهدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم التي انّما هي متاع أيام قلائل...» (نهج البلاغة كتاب ٦٢ ص٤٥١).

وكانت هذه الأولويّة تحكم فعاليّات أئمة أهل البيت عليهم السلام في جميع عصورهم، حيث نجد الإمام الصادق عليه السلام يوظّف جانباً كبيراً من نشاطه في مواجهة حركات الارتداد والزندقة، والتي أخذت تنمو بسبب انشغال المسلمين بشكل عام بالنشاطات السياسيّة الحادّة والقوميّة، أبان فترة التغيير التي شهدها العالم الإسلامي في العهد الاموي الىٰ العهد العبّاسي.

لكنّ الأئمة عليهم السلام حينما وجدوا الامّة الإسلاميّة تواجه هذا التهديد العقائدي الخطير في غفلة من المسلمين، قاموا بمسؤولياتهم الدينيّة في هذا المجال.

ومن الضروري أن نشير هنا الىٰ أنّ المقصود بالقضيّة العقائديّة، هو قضيّة الأساس العقائدي للاسلام المتمثل بالايمان بالله والرسالة واليوم الآخر.

وأمّا الفروع الأُخرىٰ للعقيدة، فضلاً عن القضايا ذات الطابع الفقهي فهي لا تدخل بطبيعة الحال في هذه المفردة الأساسيّة، ومن هنا لابدّ أن نشير الىٰ أنّ هذه الأولويّة للعقيدة الإسلاميّة، تفرض علينا اهتماماً جديداً بالغاً في نظرتنا الىٰ التحديات الحضاريّة المعاصرة، كما أشرنا الىٰ ذلك في البحث السابق، وخصوصاً بالنسبة الىٰ النظام العالمي الجديد، الذي لابدّ للنهضة الإسلاميّة المعاصرة من تبنّي تصور شامل حوله، وطرحه للبشرية جمعاء، ذلك أنّ هذه القضيّة تمثل في أحد جوانبها قضيّة عقائديّة، لأنّه بدون هذا الطرح الجديد، سوف تثار الشكوك بشكل طبيعي حول صلاحية الرسالة الإسلاميّة لمواجهة التحديات، وهي رسالة عالميّة وخاتمة، فلا بدّ أن تكون قادرة علىٰ هذه المواجهة.

وقد أُثير مثل هذا الشك في بدايات القرن الرابع عشر الهجري ليس في الأوساط الغربيّة، بل في أوساط العالم الإسلامي أيضا الأمر الذي مهدّ للغزوالعسكري والحضاري الغربي.

٢- الدولة الإسلاميّة

المفردة الثانية في سلّم الاولويات هي قضية الكيان السياسي الإسلامي المتمثل بالدولة الإسلاميّة، فانّ هذا الكيان يأتي من حيث الأهميّة بعد العقيدة الإسلاميّة.

ولذلك نجد أئمة أهل البيت عليهم السلام يحرصون علىٰ الحفاظ علىٰ الكيان السياسي الإسلامي المتمثل بالدولة الإسلاميّة، وعلىٰ قوته ومنعته، بالرغم من وجود المؤاخذات الكثيرة لديهم علىٰ مجمل الأوضاع التي كانت تعيشها هذه الكيانات في مختلف العهود، ولكنّهم كانوا ينظرون الىٰ هذه المؤاخذات في اطار ضرورة المحافظة علىٰ الكيان الإسلامي في مقابل الاعداء الخارجين والتهديدات التي كانت تواجهه.

وفي هذا المجال كان علىٰ أئمة أهل البيت عليهم السلام أن يحافظوا علىٰ موازنة دقيقة وحسّاسة، نجد معالمها وآثارها في مجمل سلوكهم وأحاديثهم ومواقفهم المرويّة عنهم.

فمن ناحية كان يرىٰ أهل البيت عليهم السلام ضرورة المحافظة علىٰ هذا الكيان، بحيث يجب أن يبقىٰ قادراً علىٰ أداء وظائفة الاساسيّة في حفظ الامن والاستقرار والدفاع عن الوجود الإسلامي أمام التهديدات الخارجيّة.

ومن هذا المنطلق لم يكونوا يسمحوا لأنفسهم إلّا في حالات خاصة (كحالة الإمام الحسين عليه السلام) -كما أشرنا- أن يقوموا بأعمال ثوريّة مضادة، كما كانوا ينصحون شيعتهم في أغلب الحالات بعدم المشاركة في هذه

الأعمال، لأنها تزعزع هذا الوجود وتجعل الدولة الإسلاميّة تعيش الفوضىٰ والاضطراب، وتضعف أمام الاعداء.

وكانو يحثّون شيعتهم علىٰ القيام بواجباتهم في الدفاع عن هذا الكيان الإسلامي من خلال المرابطة علىٰ الثغور الإسلاميّة[1]، كماكان الإمام زين العابدين عليه السلام يدعو لأهل الثغور ويمجّد أعمالهم وجهودهم.

وكانوا أيضاً يتعاملون مع المراسيم العامّة الاسلاميّة الصحيحة لهذا الكيان الإسلامي علىٰ آنها مراسيم مشروعة، كقضيّة دفع الزكاة، والاشتراك في مراسم الحج والعيد وصلاة الجمعة والجماعة وغيرها من الممارسات الإسلاميّة، ويحثّون شيعتهم علىٰ هذه المشاركة انطلاقاً من هذا المبدأ العام.

ولكن من جانب آخر، كان أهل البيت عليهم السلام يتحملون مسؤولية شرعيّة واخلاقيّة وانسانيّة تجاه قضية وجود الانحراف في الحكم الذي يرونه لايتطابق مع تصوراتهم، لا في أصل حق الولاية والحاكميّة، ولا في تفاصيل الممارسات الظالمة والجائرة، التي كان يقوم بها الحكم في كثير من الأدوار تجاه الامّة، واستهتاره بمصالحها لحساب المصالح الشخصيّة في كثير من الأدوار.

وهذه المسؤولية الكبيرة والحساسة كان يشعر بها أهل البيت عليهم السلام تجاه

---

(١) عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «كلّ ميّت يختم علىٰ عمله إلّا المرابط فانه ينمو له عمله الىٰ يوم القيامة ويؤمن من فتان القبر». (المستدرك علىٰ الصحيحين للحافظ النيسابوري، ج: ٢، ص ٧٩، وعنه صلى الله عليه وآله: «حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها». (نفس المصدر، ص ٨١) وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «كل عين باكية يوم القيامة غير ثلاث: عين سهرت في سبيل الله...الحديث» (اصول الكافي ج: ٢، ح: ٢، ص ٨٠).

أتباعهم، وتجاه المسلمين عامّة، ومن هنا نجد مواقف وأقوال أهل البيت عليهم السلام تتخذ اسلوب النقد والاصلاح والادانة أحياناً تجاه الحكم، وتشتد وتيرة هذه الفعاليات متناسقة مع وتيرة الانحراف والطغيان الذي كان يمارسه هذا الحكم، فقد ذكروا في أقوالهم أحقيتهم بالولاية، لأنهم كانوا بحاجة أن يحفظوا لشيعتهم وللمسلمين الحقيقة التي يعتقدون بها في هذا الحق، وأكّدوا هذا الأمر في هذه الأقوال لأنهم بحاجة الىٰ ذلك، عندما أثار العباسيون شبهة أنّ ولد العبّاس هم أهل البيت عليهم السلام وهم مصداق (الرضا من آل محمد «ص») كما انهم كانوا بحاجة الىٰ هذا التأكيد لأنهم عملياً كانوا يتعايشون مع الحكم، وبدون هذا التأكيد سوف تضيع الحقيقة أو تشتبه علىٰ الناس.

وأيضاً نجد أهل البيت عليهم السلام يمنعون شيعتهم ومن يأخذ برأيهم من المسلمين المشاركة في عمليات الغزو الذي كان يقوم به بعض حكّام المسلمين من أجل المزيد من الغنائم أو السيطرة والهيمنة علىٰ الأراضي، لأنّ مثل هذه الحروب لم تكن مبررة دينياً وشرعياً[١]، بخلاف حروب صدر الإسلام حيث شارك فيها الإمام علي عليه السلام وخاصة أصحابه كسلمان الفارسي،

(١) عن محمد بن عبد الله السمندري قال: قلت لابي عبد الله عليه السلام اني اكون بالباب يعني باب الابواب، فينادون السلاح فأخرج معهم، قال: فقال لي: أرأيتك ان خرجت فأسرت رجلاً فأعطيته الامان وجعلت له من العقد ما جعله رسول الله صلى الله عليه وآله للمشركين، أكان يفون لك به؟ قال: قلت: لا والله جعلت فداك ماكانوا يفون لي به، قال عليه السلام: فلا تخرج، قال: ثم قال لي: أما انّ هناك السيف».«وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين: لا يخرج المسلم في الجهاد مع من لا يؤمن على الحكم ولا ينفذ في الفيء أمر الله عزّ وجل، فانه ان مات في ذلك المكان كان معيناً لعدوّنا في حبس حقنا والاشاطة بدمائنا وميتته ميتة جاهلية». (وسائل الشيعة ج٦، باب: ١٢، ح٧، ٨ ص ٣٤).

لأنها ذات أهداف صحيحة.(١)

كما انهم منعوا شيعتهم من التعاون مع الحكم ولو بخيط ابرة في بعض الادوار لحرمة هذه المعونة(٢) وخوفاً علىٰ شيعتهم من الانزلاق في منحدرات الظلم والطغيان والشهوات، والتي كانت تغريهم بشكل خاص في أوائل

---

(١) حاصر أحد جيوش المسلمين قصراً من قصور فارس وكان الامير سلمان الفارسي فقالوا: يا ابا عبدالله ألا تنهد اليهم (اي تأمر الجيش بالزحف عليهم) قال: دعوني أدعهم كما سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يدعو فأتاهم فقال لهم: انّما أنا رجل منكم فارسي والعرب يطيعونني فان أسلمتم فلكم مثل الذي لنا وعليكم ما علينا وان ابيتم الى دينكم تركناكم عليه واعطونا الجزية عن يد وانتم صاغرون، قال: ورطن اليهم بالفارسية وانتم غير محمودين، وان ابيتم نابذناكم علىٰ سواء (اي أعلمناكم به وقاتلناكم) قالوا: ما نحن بالذي يعطي الجزية ولكنّا نقاتلكم، قالوا: يا أبا عبد الله الا تنهد اليهم، قال: فدعاهم ثلاثة ايام الىٰ مثل هذا ثم قال: انهدوا اليهم قال: فنهدنا اليهم ففتحنا ذلك القصر.

(رواه الترمذي - التاج الجامع للاصول للشيخ منصور علي ناصف: ٣٦٦/٤كتاب الجهاد والغزوات).

(٢) فقد روي ان صفوان الجمال كان يكري ابله الىٰ هارون الرشيد ليحج عليها الى بيت الله الحرام، فدخل علىٰ الإمام موسىٰ بن جعفر عليه السلام، فلمّا استقر به المجلس التفت له الإمام قائلاً له: يا صفوان:كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئاً واحداً.

فذهل صفوان وذابت نفسه، فقال للامام: - جعلت فداك أيّ شيء هو؟ قال عليه السلام: كراؤك جمالك من هذا الطاغية - يعني هراون - فقال: والله ما أكريته أشراً ولا بطراً، ولا للصيد، ولا للهو ولكن اكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ولا أتولاه بنفسي ولكن أبعث معه غلماني.

فقال له الإمام: يا صفوان أيقع كراك عليهم؟ قال: نعم جعلت فداك قال عليه السلام: اتحب بقائهم حتىٰ يخرج كراك؟ قال: نعم! قال عليه السلام: من أحب بقائهم فهو منهم، ومن كان منهم كان وارداً للنار. فانطلق صفوان فباع جماله فبلغ ذلك هارون فاستدعاه، فلما مثل عنده قال له: يا صفوان بلغني أنك بعت جمالك؟

قال: نعم!

قال: لم؟

قال: أنا شيخ وأن الغلمان لا يقومون بالاعمال. قال: هيهات!!

اني لأعلم من أشار بهذا عليك موسىٰ بن جعفر. بحار الانوار ٧٢:٣٧٦.

العصر العباسي.

كما كانوا يمنعون شيعتهم من التحاكم الىٰ قضاة الجور ويرونه تحاكماً الىٰ الطاغوت.(١)

وشجعوا أحياناً بعض الحركات الثورية التصحيحية في العالم الإسلامي، عندما كان الظلم يبلغ درجة عالية من القسوة والاستهتار بالحقوق الانسانيّة، بل كان أهل البيت عليهم السلام يرفعون أصواتهم بالاحتجاج في بعض الأحيان، وقد كانت هذه الموازنة ضرورية ودقيقة ومهمة، وتعبّر عن هذه النظرة الاجمالية الىٰ أهمية الكيان السياسي في النظرية الإسلاميّة، وضرورة المحافظة عليه.

ولعل أحد احتمالات تفسير موقف الإمام علي عليه السلام من الخلافة في الصدر الأول للاسلام ينطلق من هذا المبدأ، فانّه لا شك في أنّ الإمام علياً عليه السلام كان يعتقد انّه الأحق بالخلافة من الخليفة الأول أبي بكر، وقد صرّح بذلك في عدة مواضع، وامتنع عن البيعة في البداية من أجل التعبير عن هذا الموقف، ولكنّه مع ذلك لم يتخذ موقفاً يتسم بالعنف واستخدام السلاح في مواجهة هذه الخلافة.

وهناك عدد من التفسيرات والاحتمالات لخلفية موقف الإمام علي عليه السلام .

---

(١) «عن عمر بن حنظلة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أوميراث، فتحاكما الىٰ السلطان والىٰ القضاة، أيحلّ ذلك؟ قال: من تحاكم اليهم في حق أوباطل فانّما تحاكم الىٰ الطاغوت، وما يحكم له فانّما يأخذه سحتاً وان كان حقاً ثابتاً له، لانه أخذه بحكم الطاغوت وما أمر الله أن يكفر به، قال تعالى: ﴿يريدون أن يتحاكموا الىٰ الطاغوت وقد امروا أن يكفروا به﴾، قلت: كيف يصنعان؟ قال ينظران من كان منكم ممن قد روىٰ حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكماً، فاني قد جعلته عليكم حاكماً».(الوسائل ج١٨، أبواب صفات القاضي، ص٩٨).

الأول: ما أشرنا اليه آنفاً من الاحساس بالخطر الذي يهدد الرسالة الإسلاميّة.

الثاني: انّ الإمام علياً عليه السلام أدرك بأنّه غير قادر علىٰ مواجهة التخليط والاعداد الجيّد المسبق لتنصيب أبي بكر خليفة، والاستفادة من فرصة انشغاله بتكفين وتغسيل رسول الله صلى الله عليه وآله والمحافظة علىٰ الأمانات الموجودية في عنقه، الأمر الذي يجعل العملية ذات طابع انتحاري.

الثالث: شعور الإمام علي عليه السلام أنّ هذه المقاومة سوف تؤدي الىٰ زعزعة الحكم الإسلامي وكيانه الجديد، الأمر الذي يجعله غير قادر علىٰ القيام بوظائفه وواجباته ومسؤولياته الخطيرة أمام أعداء الرسالة، أوفي نشرها وابلاغها للبشرية، وهذا الاحتمال الأخير له مبرراته وشواهده، فقدكان الإمام علي عليه السلام يملك مجموعة من الفرص والامكانات السياسيّة والمعنويّة والماديّة تجعله قادراً علىٰ القيام بحركة ناجحة لزعزعة الكيان واضعافه، والاحتفاظ بنفوذ قوي في مجمل الاوضاع السياسيّة ولكن علىٰ حساب قوة الكيان السياسي الإسلامي العام.

فمواهبه الشخصية القتالية الفريدة، وتاريخه الجهادي، وقربه من رسول الله صلى الله عليه وآله، وفضله وعلمه، والنصوص الكثيرة الواردة في حقّه من رسول الله صلى الله عليه وآله بالاضافة الىٰ تأييد جماعة مهمة من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله له تأييداً قوياً، أمثال العبّاس بن عبد المطلب والزبير بن العوام وسلمان الفارسي ومقداد بن الأسود وعمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، وغيرهم، وموقف الزهراء البتول عليها السلام، والموقف العام لشيخ الخزرج سعد بن عبادة، وكذلك العرض

السياسي الذي قدّمه أبو سفيان للوقوف الىٰ جانبه في هذه المعركة، وهو عرض له أهميته السياسيّة في ذلك العصر، من خلال العلاقات القبلية، والذي تبين بعد ذلك أنّ للأُمويين دوراً كبيراً في الاوضاع السياسية، كلّ هذه العوامل وغيرها يمكن أن تكون مبررات للقيام بمثل هذا التحرك.

ولكنّ الإمام علياً عليه السلام انّما انصرف عن ذلك حفاظاً علىٰ هذا الكيان الإسلامي الفتي، حيث كان يرىٰ ذلك أولىٰ من كلّ هذه الحقوق والاهداف.

ويبدو هذا الموقف أكثر وضوحاً في نهاية خلافة عثمان، فبالرغم من الملاحظات لدىٰ الإمام عليه السلام علىٰ خلافة عثمان وطريقة ادارته للامور، وتمكينه لمجموعة من أقاربه المعروفين تاريخياً بعدائهم للاسلام وللنبي صلى الله عليه وآله من المواقع المهمة، وتعرض مجموعة من خاصة علي عليه السلام للاضطهاد أمثال أبي ذر وعمّار وعبد الله بن مسعود، وصدور الاحتجاجات من هنا وهناك علىٰ هذه الأوضاع من قبل المسلمين... فانّ الإمام علياً لم يستغل أيّ واحد من هذه الظروف لصالح وصوله الىٰ الحكم والخلافة، مع ايمانه العميق بأحقيقته بها، وانما حاول أن يهديء الأوضاع، وأن ينصح الخليفة، ويقف حائلاً بينه وبين غضب المسلمين، وبعد ذلك أرسل ولديه الحسنين عليهما السلام للدفاع عنه في بيته، حتىٰ تمّ قتله غيلة.

انّ كلّ هذه التفاصيل في هذا الموقف تؤكّد هذه الأولوية للكيان السياسي الإسلامي في نظر أهل البيت عليهم السلام.

٣- الوحدة الإسلامية

والمفردة الثالثة في سلّم الاولويات في نظر أهل البيت عليهم السلام هي الوحدة الإسلامية، حيث تأتي هذه المفردة في جملة القضايا التي أعطاها أهل البيت عليهم السلام أهمية خاصة، وقدّموها على الكثير من الحقوق والواجبات الخاصة بهم، لأنّ المسلمين لا يمكنهم أن يحتفظوا بفاعليتهم ووجودهم وتأثير رسالتهم على البشرية مالم يحققوا هذه الوحدة بينهم، كما أنّهم لا يمكنهم -كما أشرنا سابقاً - أن يخوضوا مواجهة مع أعدائهم مالم يصنعوا ذلك من دون فرق بين المواجهة الحضارية أوالسياسيّة أوالعلميّة أوالاقتصادية، فضلاً عن المواجهة العسكريّة.

وأهل البيت عليهم السلام وان كانوا قد منحوا قدراً كبيراً من جهدهم واهتمامهم الى مفردة اساسيّة ومهمة في مجمل حركتهم وهي بناء الجماعة الصالحة المتمثلة بشيعتهم واتباعهم المعتقدين بامامتهم وولايتهم، ووضعوا في نفس الوقت أهدافاً لهذه الجماعة في طول التاريخ الإسلامي، إلّا أنّ هذا الاهتمام كلّه جاء في ضمن المحافظة على وحدة الأمّة الاسلاميّة، ومن أجل المحافظة على العقيدة الاسلاميّة والدولة الاسلاميّة والوحدة الاسلاميّة نفسها.

ومن هنا يمكن أن نعرف مدى التوافق والانسجام بين فكرة الوحدة الاسلاميّة وضرورتها، وبين فكرة الاهتمام بأتباع أهل البيت عليهم السلام وبناء الجماعة الصالحة، حيث انّ هذا البناء جاء في اطار هذه الوحدة ومن أجلها[1]

(١) يمكن التعرف على مزيد من التفصيل بمراجعة بحثنا حول (دور اهل البيت في بناء الكتلة الصالحة).

ومن هذا المنطلق نجد أهل البيت عليهم السلام يضعون اطروحة متكاملة، والبحث في هذه النظرية يقع في فصلين:

الأول: منهج الوحدة الاسلاميّة.

الثاني: هامش الاختلاف والتعدد.

الفصل الأول
منهج الوحدة الاسلاميّة

من الممكن أن نرسم منهج الوحدة الاسلاميّة في نظر أهل البيت عليهم السلام ـ بشكل اجمالي ـ في المعالم الأربعة التالية:

المعلم الأول: ارساء الوحدة الاسلاميّة على أساس النظريّة القرآنية

لقد اهتم أهل البيت عليهم السلام في منهجهم لتحقيق الوحدة الاسلاميّة بين المسلمين بالاسس التي اكّد عليها القرآن الكريم، وكذلك بالوسائل التي استخدمها في سبيل تحقيق هذه الوحدة والتي استعرضناها في البحث السابق.

١- فقضية التوحيد الالهي والعقيدة الاسلاميّة الصحيحة أولاها أهل البيت عليهم السلام أهمية خاصة، حيث جعلوا قضية العقيدة القضية الاولى في سلّم الاولويات، ليس على مستوى الاهتمام بها وتقديمها على القضايا الاخرى كما أشرنا سابقاً فحسب، بل على مستوى ترتيب الآثار العملية في الحياة الاجتماعية، فمادام الإنسان المسلم ملتزماً بالشهادتين ترتب عليه آثار

الإسلام من حرمة دمه وماله وعرضه ومواثيقة وعهوده...الخ[١].

كما أنهمعليهم السلام أكدّوا علىٰ تكامل الايمان بالله تعالىٰ من خلال الطاعة والالتزام بأحكامه وأوامره ونواهيه وحدوده، فالايمان ليس مجرّد التزام جامد، بل هو التزام متطور متحرك ومتنام[٢].

٢-كما انّ قضية طاعة الرسول والالتزام بالسنّة النبوّية كانت من القضايا الأساسيّة التي اكّد عليها أهل البيت عليهم السلام، ولذا نجد مدرستهم تمتاز بهذا التأكيد، فلا تقبل الاعتماد علىٰ الرأي أوالقياس أوالاستحسانات المطلقة مصدراً لمعرفة الشريعة.

وترفض مدرستهم الاجتهاد في مقابل النص، وتؤكّد مدرستهم -أيضاً- علىٰ مبدأ دور طاعة الرسول كحاكم وولي لأُمور المسلمين (الامامة) من خلال التأكيد علىٰ مبدأ الولاية (المعصومة) و(المنصوصة)، انسجاماً مع قضيّة الطاعة للرسول نفسه، تعتبر قضيّة الحكم من القضايا الاساسيّة التي

(١) «عن عبد الله بن سنان قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: بم يكون الرجل مسلماً تحل مناكحته وموارثته، وبم يحرم دمه؟ قال عليه السلام: يحرم دمه بالاسلام اذا ظهر وتحل مناكحته وموارثته» (الوسائل: ج:١٤، ح:١٧، ص ٤٢٧).

(٢) «روي أنّ سائلاً سأل الإمام جعفر بن محمد عليه السلام: أيّ الأعمال أفضل عند الله؟ فقال عليه السلام: «ما لا يقبل الله عزّ وجلّ عملاً إلّا به»، قال: وما هو؟ قال عليه السلام: الايمان بالله أعلىٰ الأعمال درجة، واشرفها منزلة، وأسناها حظاً. قال السائل: قلت: أخبرني عن الايمان، أقول وعمل، أم قول بلا عمل؟ قال عليه السلام: الايمان عمل كلّه، والقول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بيّن في كتابه، واضح نوره، ثابتة حجته، يشهد به الكتاب ويدعو اليه. قال: قلت: بيّن ذلك جعلني الله فداك حتىٰ أفهمه، قال عليه السلام :ان الايمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل، فمنه التام المنتهي تمامه، ومنه الناقص البيّن نقصانه، ومنه الراجح البيّن رجحانه. قال: قلت: ان الايمان لينتقص ويتم ويزيد؟، قال عليه السلام: نعم...الحديث»(المستدرك وسائل الشيعة ج ١١ كتاب الجهاد ص ١٥٠).

تفضل الصلاة والصيام والحج والزكاة، كما جاءت النصوص عنهم في هذا الأمر لأن الولاية مفتاحهنّ والوالي هو هو الدليل عليهنّ(١).

وفي هذا الصراط يأتي تأكيدهم على ضرورة التعايش مع الحكم الإسلامي حتى لو كان منحرفاً -كما ذكرنا آنفاً - وسوف نشير اليه في المعالم الآتية.

٣-كما أنهم أكّدوا بشكل واضح على أهمية دور رعاية الراعي للرعيّة، والحاكم للأمّة، حيث تمّ هذا التأكيد عملياً وبدرجة عالية مثالية من خلال

---

(١) «عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية، قال زرارة: فقلت: وأيّ شيءٍ من ذلك أفضل؟ قال عليه السلام: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهنّ والوالي هو الدليل عليهنّ، قلت: ثم الذي يلي ذلك في الفضل؟ فقال عليه السلام: الصلاة، انّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الصلاة عمود دينكم، قال: قلت: ثمّ الذي يليها في الفضل؟ قال عليه السلام: الزكاة لأنه قرنها بها وبدأ بالصلاة قبلها عليه السلام وقال رسول الله صلى الله عليه وآله): الزكاة تذهب الذنوب. قلت: والذي يليها في الفضل؟ قال عليه السلام: الحج، قال الله عزّوجلّ:«ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فانّ الله غني عن العالمين».(آل عمران: ٩٧،) وقال رسول الله ٩:«لحجة مقبولة خير من عشرين صلاة نافلة ومن طاف بهذا البيت طوافاً أحصى فيه أسبوعه وأحسن ركعتيه غفر الله له» وقال في يوم عرفة ويوم مزدلفة ما قال. قلت: فماذا يتبعه؟ قال عليه السلام الصوم، قلت: وما بال الصوم صار آخر ذلك أجمع؟ قال عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الصوم جنّة من النار، قال: ثم قال عليه السلام: ان أفضل الأشياء ما إذا فاتك لم تكن منه توبة دون أن ترجع اليه، فتؤديه بعينه، انّ الصلاة والزكاة والحج والولاية ليس يقع شيء مكانها دون أدائها وان الصوم اذا فاتك أوقصرّت أوسافرت أدّيت مكانه أياماً غيرها، وجزيت ذلك الذنب بصدقة، ولا قضاء عليك، وليس من تلك الأربعة شيء يجزيك مكانه غيره، قال: ثم قال عليه السلام: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الاشياء ورضا الرحمن الطاعة للامام بعد معرفته، انّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ (النساء: ٨٠)، أما لو أنّ رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدّق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته اليه، ماكان له على الله عز وجل حق في ثوابه، ولاكان من أهل الايمان، ثم قال: اولئك المحسن منهم يدخله الله الجنة بفضل رحمته». اصول الكافي ج٢ باب دعائم الإسلام، ح:٥.

سيرة الإمام علي عليه السلام في خلافته، ومن خلال رعاية الأئمة لشيعتهم وأتباعهم ومواساتهم لهم مما تعجّ به روايات سيرتهم وسلوكهم.

كما تمّ هذا التأكيد بالقول والنصيحة، ولعلّ أروع النصوص في هذا المجال عهد الإمام علي عليه السلام لواليه علىٰ مصر مالك الاشتر، والكتب والرسائل التي كان يبعث بها الإمام علي عليه السلام الىٰ ولاته، والتي جمع الشريف الرضي قسماً منها في كتابه نهج البلاغة.

٤-كما أنّ النصوص الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في حقوق المسلم علىٰ المسلمين، وتفاصيل هذه الحقوق، تؤكد بشكل رائع وتفصيلي مفهوم القاعدة والاطار الذي تقوم عليه هذه الوحدة بين المسلمين.[١]

٥ـ وقد تضمن التراث الأخلاقي الذي تركه أئمة أهل البيت عليهم السلام سواء في مجال الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في مختلف القضايا الأخلاقيّة

---

(١) «وفي وصية الإمام أمير المؤمنين لابنه محمد بن الحنيفة قال: وأحسن الىٰ جمع الناس كما تحب أن يحسن اليك وارض لهم ما ترضاه لنسفك، واستقبح لهم ما تستقبحه من غيرك، وحسّن مع الناس خلقك، حتىٰ اذا غبت عنهم حنّوا اليك، واذا متّ بكوا عليك وقالوا ﴿إنّا لله وإنا اليه راجعون﴾، ولا تكن من الذين يقال عند موته «الحمد لله ربّ العالمين» واعلم أنّ رأس العقل بعد الايمان بالله عزّ وجل مداراة الناس، ولا خير فيمن لا يعاشر بالمعروف من لابدّ من معاشرته، حتىٰ يجعل الله الىٰ الخلاص منه سبيلاً، فأني وجدت جميع ما يتعايش به الناس وبه يتعاشرون ملؤ مكيال ثلثاه استحسان، وثلثه تغافل».(وسائل الشيعه: ح٨، ص٥٤١).

«وعن ابي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام قال: أحبّ أخاك المسلم وأحبّ له ما تحب لنفسك، واكره له ما تكره لنفسك، اذا احتجت فسله، واذا سألك فأعطه، ولا تدّخر عنه خيراً فانه لا يدّخر عنك، كن له ظهراً فانه لك ظهر، ان غاب فاحفظه في غيبته، وان شهد فزره واجلّه واكرمه، فانه منك وانت منه، وان كان عليك عاتباً فلا تفارقه حتىٰ قلّ سخيمته وما في نفسه، فاذا أصابه خير فاحمد الله، وان ابتلىٰ فاعضده وتمحل له.» (نفس المصدر، ح١٩، ص٥٤٨).

وبتفاصيل وشموليّة لا ينظر لها في المدارس الاخرىٰ، أوفي مجال الدعاء والمناجاة مع الله، من روائع المعرفة وأساليب التكامل الإنساني، أوفي مجال الوصايا التي ضمنها أئمة أهل البيت عليهم السلام مناهج للتربية الأخلاقية، أوالحكم والكلمات القصيرة أوغير ذلك من التراث الذي كان له دور عظيم ليس في التأثير علىٰ شيعتهم وبناء الجماعة الصالحة فحسب بل في مجموع الأمّة الاسلاميّة.[١]

انّ هذا التقصي والمتابعة من قبل أهل البيت عليهم السلام لأسس النظرية القرآنية في الوحدة الاسلاميّة يجسد أحد معالم هذا المنهج.

وبالاضافة علىٰ ذلك تأكيدهم علىٰ الالتزام بأساليب القرآن في الوحدة التي تحدثنا عنها آنفاً، من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والعفو والصفح والمساعي الحميدة ليتحقق الصلح، مما ورد التأكيد عليها بشكل رائع وواسع، ويمكن أن نقول أنّ مدرسة أهل البيت تتميز بشكل خاص في التأكيد علىٰ اعتماد «العلم» منهجاً لمعرفة الحقائق، وفي الوقوف في وجه العدوان ومناصرة المظلوم، وفي التعامل علىٰ أساس ظاهر الإسلام دون التفتيش عن العقائد والنيّات.

المعلم الثاني: تبنّي قضايا الأمّة الكبرىٰ

والمعلم الثاني لمنهج أهل البيت عليهم السلام في الوحدة هو تبنّي قضايا الامة الكبرىٰ، بدلاً من تبنّي القضايا الجزئية أوالفئوية أوالمذهبية، وتحويلها الىٰ

(١) تناولنا ذلك بشكل من التفصيل في بحثنا «دور أهل البيت في النظرية الاسلاميّة».

قضايا أساسيّة في الاهتمام والصراع، ولعلّ هذا هو أحد الخطوط الرئيسية التي تميز مذهب أهل البيت عليهم السلام في معالجة القضايا التي كانت تثير الخلاف والجدال والاهتمامات في الامة الاسلاميّة، ذلك أنّ الامة علىٰ مرّ العصور كانت تتعرض الىٰ مختلف المستجدات الفكريّة والسياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة، وكانت هذه المستجدات تثير الكثير من الاهتمام والخلافات، وتواجه العديد من الاجتهادات.

كما إنّ هذه المستجدات كانت تختلف من حيث القيمة ودرجة اهتمام الناس بها، وعلاقتها بمصالح الامّة بشكل عام، فكانت بعض القضايا الجزئية تنال درجة كبيرة من الاهتمام في بعض الأوساط، ويتم التركيز عليها بحيث تصبح وكأنها القضيّة الأساسيّة الاولىٰ في الامة دون أن يكون لها علاقة كبيرة بمصالحها وقضاياها، وتصبح بعض القضايا المهمة في الظل، أوفي الدرجات السفلىٰ من الاهتمامات، بسبب الصراعات والمعارك الجانبية ذات الأهداف المحددة، أوالغايات السياسيّة المخططة، وكان أهل البيت عليهم السلام يعطون الأهمية في هذه القضايا للامور ذات العلاقة بمصالح الأمّة الكبرىٰ، وبهذا الصدد يمكن أن نشير الىٰ عدة نماذج وأمثله لهذه الاهتمامات في عهود الأئمة من أهل البيت المختلفة.

فالقضية الكبرىٰ التي واجهها الإمام الحسين عليه السلام -علىٰ ما أشرنا سابقاً- هي قضية تعرض العقيدة الاسلاميّة الىٰ الخطر، أوعلىٰ الأقل تعرّض قضية الحكم الإسلامي الىٰ الخطر حيث أن تنصيب يزيد بهذه الطريقة كان يعني علىٰ أقل تقدير خطر تحول الحكم الإسلامي من الحكم الالهي واقامة العدل

بين الناس الىٰ الحكم الكسروي والقيصري، الذي يكون الحكم فيه للطاغوت وللهوىٰ والرأي.

وهذه قضية كبرىٰ وخطيرة أدركها جميع المسملين المخلصين في ذلك العصر وفي مقدمتهم كبار الصحابة والتابعين امثال عبد الله بن عبّاس وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الرحمن بن أبي بكر وغيرهم.

ولكنّ الإمام الحسين عليه السلام هو الشخص الوحيد الذي تحمّل مسؤولية النداء بهذه القضية والمواجهة بها، لماكان يتميز به من خصائص موضوعية وتاريخية، وبالخصوص نسبته الىٰ الرسول صلى الله عليه وآله والارتباط الوثيق بالرسالة الاسلاميّة وغير ذلك من المواصفات.

فهذه القضية كانت من القضايا الكبرىٰ التي تهم المسلمين، وتحمل الحسين عليه السلام فيها المسؤولية نيابة عن المسلمين جميعاً، وهذا الأمر هو الذي يفسر لنا الاجماع المطلق لدىٰ المسلمين في جميع العصور علىٰ تأييد نهضة الإمام الحسين عليه السلام، بالرغم من الاختلاف الواسع لدىٰ المسلمين في الاتجاهات السياسية والمذهبية، فهذا القبول المطلق لنهضة الحسين عليه السلام في جميع العهود الإسلامية، والادانة المطلقة لموقف يزيد من جميع علماء المسلمين، بالرغم من المحاولات التي بذلها الأمويون للتغطية والتعتيم علىٰ هذه الحقيقة... كل ذلك شاهد واضح علىٰ أنّ هذه القضية كانت من القضايا الكبرىٰ التي تهم مصالح المسلمين جميعاً.

ونجد النماذج الاخرىٰ في مواقف أئمة أهل البيت عليهم السلام بعد الإمام الحسين عليه السلام، حيث كانت القضية الأخلاقية هي الاولىٰ في عهد الإمام

السّجادﷺ بعد المآسي التي شهدها العالم الإسلامي في واقعة كربلاء والحرّة، والاعتداء علىٰ الحرم المكّي الآمن، وبعد تحول ضمير الإنسان المسلم الىٰ ضمير يشترىٰ بالدرهم والدينار وبزيادة العطاء بعيداً عن القيم والمثل الاسلاميّة، وتحول المراكز المقدسة كالمدينة ومكّة، من مراكز يتنافس فيها الفقهاء والعلماء الىٰ مراكز يتنافس فيها شعراء المجون والمغنّون والمغنيات والجوار والقينات، فكان هذا الابداع العظيم للامام زين العابدين ﷺ من خلال أساليب التربيّة ومنهاج الدعاء والمناجاة ودروس مكارم الاخلاق، والسلوك العرفاني العالي.

وكذلك موقف الإمام الباقر ﷺ في احياء السنّة، ومدارسة الحديث، وتدوينه ونشره، ثمّ موقفه في القضية الاقتصاديّة الكبرىٰ التي هزّت العالم الإسلامي، عندما تحدّىٰ سلطان الروم الدولة الاسلاميّة بالتهديد بضرب السكّة بما يهين شعائر الإسلام، وكان النقد السائد هو النقد الروماني، حيث اقترح الإمام الباقر ﷺ علىٰ الخليفة الاموي أن تقوم الدولة الاسلاميّة بنفسها بضرب السكّة، وتحرير (النقد) الإسلامي من الهيمنة الأجنبية.

وموقف الإمام الصادق ﷺ أمام القضيّة الكبرىٰ للمسلمين التي واجهوها، وهي قضية الفلسفات اليونانيّة والرومانيّة والهنديّة التي غزت العالم الإسلامي مقرونة بالعلوم الطبيعيّة (الطب، والهندسة، والفيزياء)، حيث أخذت هذه الفلسفات تبهر عقول المسلمين بما اقترنت به من أساليب للتنظير، ومن علوم طبيعيّة حديثة، الأمر الذي نقارنه بما حصل للعالم الإسلامي من غزوللحضارة الغربيّة وفلسفاتها من خلال اقترانها بالعلوم

الطبيعيّة بسبب النهضة الصناعيّة، مع فارق واحد مهم، هو أنّ الدولة الاسلاميّة كانت في أوج قوتها في ذلك العصر بخلافه في العصر الحديث.

وقد تصدىٰ الإمام الصادق عليه السلام لهذا التيار الالحادي ووضع جلّ نشاطه في ادامة الاهتمامات التي وضع بداياتها والده الإمام الباقر عليه السلام بالنسبة الىٰ احياءالسنّة، وفي مواجهة هذه التيارات الالحاديّة، وخصوصاً المجالات العلميّة، بحيث عرف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه ملهم الكيمياء، وكان في مقدمة تلامذته في هذه المجالات جابر بن حيّان والمفضّل بن عمر وهشام بن الحكم وزرارة بن أعين ومحمد بن مسلم وغيرهم كثيرون.

كما كان للامام موسىٰ بن جعفر الكاظم عليه السلام دور عظيم في مواجهة الحياة السياسيّة ذات اللون التعددي الجديد في عهد هارون الرشيد، حيث اتسمت في بداية العهد بشيء من الحرّية الفكريّة والسياسيّة، حيث كانت الاهتمامات الكبرىٰ للامّة في هذا العصر ترتبط بقضية مواصفات الحاكم وواجباته، وطبيعة علاقته بالامّة.

وهكذا الحال في عهد الإمام الرضا عليه السلام والإمام الجواد عليه السلام، حيث كانت قضايا اللاهوت التي طرحها علماء أهل الكتاب من خلال الندوات الفكريّة التي أوجدها المأمون، وقضايا استيعاب الشريعة للحوادث المستجدّة والمعقّدة نسبياً للحياة الاجتماعية الاسلاميّة في القضايا الكبرىٰ للامّة.

وعندما نقارن بين هذه القضايا التي كانت موضع ومجال اهتمام أئمة أهل البيت عليهم السلام والقضايا الاخرىٰ التي كانت تثير اهتمامات ونزعات معقّدة بين المسلمين، مثل قضيّة خلق القرآن أوقضية تقديم المفضول علىٰ

الفاضل، أوقضية الارجاء في العقاب أوقضية الكفر والفسق، أوقضية القدر التي كانت تأخذ أبعاداً واسعة من الخلاف والنزاع، وتتطور الىٰ وسائل قمع واضطهاد، نجد الفرق واسعاً بين هذا النوع من الاهتمامات الجزئية وتلك القضايا الكبرىٰ.

ولا شك أنّ الاهتمام بالقضايا الكبرىٰ للامة يشكل أحد دعائم الوحدة الاسلاميّة، حيث يمكن أن تجتمع الامّة بشكل عام علىٰ مثل هذه القضايا التي تشعر بالعلاقة والرابطة بينها وبين مصالحها ووجودها.

المعلم الثالث: التعايش الاجتماعي بين جماعات المسلمين

انّ من أهم أساليب تحقيق الوحدة بين المسلمين هو وضع أسس وأساليب للتعايش الاجتماعي بينهم علىٰ اختلاف قومياتهم وشرائحهم ومذاهبهم واتجاهاتهم السياسيّة والعقائديّة.

وقد دعىٰ أهل البيتﷺ - في نظريتهم للوحدة - الىٰ هذا الأمر، بشكل خاص، فقد أكّد أهل البيتﷺ علىٰ الغاء الفوارق القوميّة والقبلية والاجتماعيّة بين فئات المجتمع، والذي نجده في أحاديثهم بشكل واضح وواسع، حيث يأتي هذا التأكيد انسياقاً مع النظريّة القرآنيّة في الغاء هذه الفوارق اجتماعياً، بل الانطلاق منها للمزيد من التعارف والوحدة:

﴿يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا انّ أكرمكم عند الله أتقاكم...﴾[1].

---

(١) الحجرات:١٣.

ولم يكتف أهل البيت عليهم السلام بهذا التأكيد على المفاهيم والمثل الأخلاقية بالكلام والحديث والتوجيه، بل انهم مارسوا ذلك عملياً في سلوكهم والتزاماتهم، وفي التعامل مع أصحابهم وحواريهم وخاصتهم، تأسياً برسول الله صلى الله عليه وآله، حتى يمكن القول بأنّ هذا السلوك والسياسة كان لها دور عظيم في حفظ وحدة المسلمين وعدم تحوّل الحكم الإسلامي الى حكم قومي، يميز بين العرب والأعاجم أوبين العرب والموالي، أوبين بعض القبائل، وغيرها، حيث تعرض المجتمع الإسلامي مثل هذه الأعاصير، وقد ابتلى بمثل هذه السياسات التي مارسها الامويون بشكل خاص، وكان لها بعض الجذور في بعض الممارسات في عصر الخلافة الراشدة وكذلك كان لهم وجود في بعض أدوار العصر العبّاسي، خصوصاً في الدور الأول منه.

ولعل اتهام جميع شيعة أهل البيت عليهم السلام (بالعجميّة) التي يرميهم بها أعداؤهم، تنطلق من طبيعة تعايش أهل البيت عليهم السلام روحياً ونفسياً مع الأُمم التي دخلت الإسلام بعد العرب في اطار المساواة وعدم التمييز، بحيث كان يجد هؤلاء المسلمون الجدد في أهل البيت عليهم السلام هذه الروح الرحبة والملجأ والملاذ الآمن والفهم الصحيح للإسلام فيتجاوبون معه، وإلّا فانّ أهل البيت عليهم السلام من صلب العرب والعروبة والكثير من أصحابهم من القبائل العربيّة المعروفة، ونسبة شيعتهم في العرب لا تقل عن نسبة شيعتهم في الأعاجم ان لم تزيد، ولكن هذا الذي ذكرنا انمّا هو في اطار النظرة الكليّة للاختلافات العرقيّة أوالقبلية أوالاجتماعيّة بين المسلمين، وفي هذا الاطار لا نكاد نجد فرقاً بين نظرية أهل البيت عليهم السلام وغيرهم على المستوى النظري، حيث يجمع المسلمون على هذه النظريّة الكليّة، وانما الفرق في التأكيد والاهتمام، وفي السلوك والمعاملة التي امتاز بها أهل البيت عليهم السلام بشكل واضح.

التعايش الاجتماعي بين أبناء المذاهب الاسلاميّة

المهم في هذا البحث هو اهتمام أهل البيت عليهم السلام بقضية التعايش بين المسلمين فيما يتعلق بقضية الاختلافات المذهبية، والتي يكون لها انعكاسات وتأثيرات على المستوىٰ الاجتماعي والسياسي، حيث اكّد أهل البيت عليهم السلام علىٰ ضرورة هذا التعايش وأهميته، ودعوى شيعتهم الىٰ تحقيقه، انطلاقاً من عدة أفكار أساسيّة:

الاولىٰ: الفكرة الاجتماعيّة التي تقول بحاجة المجتمع الانساني - من أجل تكامله - الىٰ تعاون بعضه مع البعض الآخر، ورفض فكرة العزلة والانطواء، أوالتجزئة والانقسام في المجتمع.

الثانية: ضرورة شعور الإنسان بالمسؤولية تجاه المجتمع ووفاءه وبالالتزامات الاجتماعيّة القانونية أوالروحيّة والعاطفيّة أوالاخلاقية، هذه المسؤولية والالتزامات التي تحفظ وحدة المجتمع، وتزيد من قوته وقدرته علىٰ مواجهة المشكلات.

الثالثة: ضرورة المساهمة في تطوير المجتمع وتكامله من خلال التأثير ايجابياً عن طريق السلوك الأخلاقي الراقي، والمعاملة الطيّبة والقدوة والاسوة الحسنة.

ونجد جذور مثل هذه الأفكار أومفاهيمها بشكل واضح في أحاديث أهل البيت عليهم السلام التي تحدثت عن هذا التعايش.

ولذا جاءت دعوة أهل البيت عليهم السلام للتعايش الاجتماعي دعوة شاملة

لمختلف المجالات والأبعاد ذات العلاقة بالحياة الاجتماعية للمسلمين، سواء كانت قوانين والتزامات، أومسؤوليات دينيّة واخلاقية، أوممارسات وشعائر عباديّة، أوعلاقات عائلية ورحمية، أومجاملات وآداب اجتماعيّة، أومشاعر وعواطف روحيّة وانسانيّة ويمكن أن نجد ذلك واضحاً في النصوص الصحيحة والكثيرة التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام، والتي سوف نكتفي بالإشارة الىٰ نماذج منها، ويمكن الرجوع اليها في المصادر الحديثة الواسعة.

أ - روىٰ الكليني في الكافي بسند صحيح عن أبي اسامة زيد الشّحام قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: **اقرأ علىٰ من ترىٰ أنّه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوىٰ الله عزوجل والورع في دينكم والاجتهاد لله وصدق الحديث وأداء الأمانة وطول السجود وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله، وأدّوا الأمانة الىٰ من ائتمنكم عليها براً أوفاجراً، فانّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط.**

صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم، فانّ الرجل منكم اذا ورع في دينه، وصدق الحديث وأدّىٰ الأمانة، وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري، فيسرني ذلك ويدخل عليّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، واذا كان علىٰ غير ذلك دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر، والله لحدثني أبي عليه السلام أن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي فيكون زينها أدّاهم للامانة وأقضاهم للحقوق وأصدقهم للحديث، اليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه فتقول: ممن مثل فلان انّه أدّانا للأمانة وأصدقنا للحديث»[1].

ب - وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبد الله

(١) الوسائل: أبواب أحكام العشرة، الباب الأول، الحديث الثاني.

الصادق عليه السلام كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس؟ قال: فقال عليه السلام: **تؤدّون الأمانة اليهم وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم، وتشهدون جنائزهم»**[1].

ج - وأيضاً بسند صحيح عن معاوية بن وهب قال قلت له:(الصادق عليه السلام) كيف ينبغي أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وبين خلطائنا من الناس ومن ليسوا علىٰ أمرنا فقال عليه السلام : **تنظرون الىٰ أئمتكم الذين تقتدون بهم فتصعنون ما يصنعون فو الله انهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدّون الأمانة لهم»**[2].

د- وفي رواية أُخرى للكليني في الكافي بسند صحيح عن حبيب الحنفي قال: سمعت أبا عبد الله (الصادق عليه السلام) يقول: **عليكم بالورع والاجتهاد واشهدوا الجنائز وعودوا المرضىٰ، واحضروا مع قومكم مساجدهم، وأحبّوا للناس ما تحبون لانفسكم، أما يستحي الرجل منكم أن يعرف جاره حقّه ولا يعرف حقّ جاره»**[3].

هـ - وبسند صحيح عن مرازم قال: قال أبو عبد الله (الصادق عليه السلام): **عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، واقامة الشهادة، وحضور الجنائز، انّه لابدّ لكم من الناس، انّ أحداً لا يستغني عن الناس في حياته، والناس لابدّ لبعضهم من بعض»**[4].

فانّ هذه النماذج - وغيرها كثير - تناول التفاصيل التي ترتبط ببعض الواجبات والمستحبات، واصول المعاشرة العامّة، والذي يؤكد أهمية

---

(١) الوسائل: أبواب أحكام العشرة الباب الأوّل، ح١.

(٢) المصدر السابق، ح:٣.

(٣) المصدر السابق، ح:٤.

(٤) المصدر السابق، ح٥.

التعايش والمعاشرة في هذا المستوىٰ، فضلاً عن المستويات الاخرىٰ التي تخص بالاولويّة واللزوم بالنسبة لها.

ويوضح الإمام الخط العام الذي يجب أن ينتهجه شيعتهم في المعاشرة من خلال النص التالي، الذي يرويه أبو ربيع الشامي قال:«دخلت علىٰ أبي عبدالله عليه السلام والبيت غاص بأهله، فيه الخراساني والشامي ومن أهل الآفاق، فلم أجد موضعاً أقعد فيه فجلس أبو عبد الله وكان متكياً، ثم قال: **يا شيعة آل محمد اعلموا انّه ليس منا من لم يملك نفسه عند غضبه، ومن لم يحسن صحبة من صحبه، ومخالفة من خالفه، ومرافقة من رافقه، ومجاورة من جاوره، وممالحة من مالحه، اتقّوا الله ما استطعتم ولا حول ولا قوة إلّا بالله**»[١].

وفي رواية أُخرىٰ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم**»[٢].

وأيضاً في رواية اخرىٰ عن أبي عبد الله (الصادق عليه السلام) قال:«كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع[٣] حيث يؤكد الائمة في بعض هذه النماذج علىٰ مسألة تمثل الاسوة والقدوة في السلوك الاخلاقي العالي.

وفي كتاب العشرة نجد تفاصيل شاملة وواسعة ودقيقة لأساليب هذا التعايش ومنهج تحقيقه يمكن مراجعتها في كتاب وسائل الشيعة الىٰ تحصيل مسائل الشريعة.

---

(١) الوسائل: أبواب أحكام العشرة باب ٢، ح٣.

(٢) المصدر السابق: باب: ١٠٧، ح:٨.

(٣) نفس المصدر: باب:١٠٨، ح: ١.

ولعلّ من أروع النصوص في هذا الموضوع ما ورد في وصية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد بن الحنفيّة والتي رواها الصدوق في كتابه (من لا يحضره الفقيه): «**وأحسن الىٰ جميع الناس كما تحب أن يحسن اليك، وارض لهم ما ترضاه لنفسك، واستقبح لهم ما تستقبحه من غيرك، وحسّن مع الناس خلقك، حتىٰ إذا غبت عنهم حنّوا اليك، واذا متّ بكوا عليك، وقالوا «انّا لله وانّا اليه راجعون» ولا تكن من الذين يقال عند موته «الحمد لله ربّ العالمين»، واعلم انّ رأس العقل بعد الايمان بالله عزّ وجل مداراة الناس، ولا خير فيمن لا يعاشر بالمعروف من لابد من معاشرته، حتىٰ يجعل الله الىٰ الخلاص منه سبيلاً، فاني وجدت جميع ما يتعايش به الناس وبه يتعاشرون ملؤ مكيال ثلثاه استحسان وثلثه تغافل**»[1]كما أنّ الصورة التي يقدمها أحد العلماء المعروفين من أهل السنّة وهو الزهري عن اسلوب الائمة في التعايش الاجتماعي عن الإمام زين العابدين عليه السلام لها دلالات واسعة في هذا المجال:

«عن سفيان بن عينية قال: قلت للزهري: لقيت علي بن الحسين؟»قال: نعم لقيته، وما لقيت أحداً أفضل منه، وما علمت له صديقاً في السر ولا عدواً في العلانية، فقيله له: وكيف ذلك؟، قال: لأني لم أر أحداً وان كان يحبه إلّا وهو لشدة معرفته به يحسده، ولا رأيت أحداً وان كان يبغضه إلّا وهو لشدة مداراته له يداريه»[2].

وذيل الحديث مصداق لقوله تعالىٰ:﴿**فاذا الذي بينك وبينه عدواة كأنّه وليّ حميم**﴾[3] .

---

(١) الوسائل: أبواب أحكام العشرة باب ١٢١، ح٨.

(٢) الوسائل: ب ١٢٠، ح: ١٠.

(٣) فصلت: ٣٤.

المعلم الرابع: التقيّة

تشكل التقيّة في نظرية أهل البيت عليهم السلام معلماً من المعالم المهمة في فهم الحياة السياسيّة والاجتماعيّة، وقد وردت فيها عشرات الروايات ذات القيمة العالية من حيث السند والمضمون والسعة والشمول، ويحتاج هذا الموضع الىٰ بحث واسع، سواء علىٰ المستوىٰ السياسي والاجتماعي، أوعلى المستوى الفقهي، ولكن سوف نتناول هذا الموضوع بالبحث هنا بشكل مختصر يتناسب مع بحثنا هذا.

قيمة «التقيّة» في نظرية أهل البيت عليهم السلام

من خلال الروايات التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام والتي تتحدث عن التقية، نجد أنّ هذا المنهج في نظر أهل البيت عليهم السلام يرتبط بقضايا أساسية في الدين، بحيث تأخذ حيّزاً واسعاً من الدين والالتزام بالنسبة الىٰ الإسلام، فقد ورد في بعض الروايات عن أبي جعفر عليه السلام: **«انّ التقية ديني ودين آبائي ولا ايمان لمن لا تقيّة له»**[1].

كما ورد في رواية اخرىٰ معن أبي عمر الاعجمي أنّ الصادق عليه السلام قال له: **«يا أبا عمر انّ تسعة أعشار الدين التقيّة، ولا دين لمن لا تقيّة له»**[2].

ويبدوأنّ المراد من (الدين) هنا هو الالتزام بالعهود والمواثيق

---

(١) الوسائل:ج:١١،ص ٤٦٠،ح:٣.

(٢) الوسائل: ج:١١، ص: ٤٦٠، ح:٢.

والأحكام، كما يمكن أن يستفاد ممن قول الصادق عليه‌السلام في رواية أُخرى: «**لا دين لمن لا تقيّة له، ولا ايمان لمن لا ورع له**»[١].

كما انه يمكن أن نفهم مدىٰ أهمية التـقيّة وقـيمتها مـن خـلال الآثـار والنتائج التي وصفها الأئمة بازاء التقيّة، فقد روىٰ محمد بن الحسـن الصـفار في كتابه (بصائر الدرجات) بسند صحيح عن المعلّىٰ بن خنيس قال: قال أبو عبدالله عليه‌السلام: «**يا معلّىٰ اكتم أمرنا ولا تذعه، فانّه من كتم أمرنا ولا يذيعه أعزّه الله في الدنيا، وجعل له نوراً بين عينيه يقوده الىٰ الجنّة.**

يا معلّىٰ من أذاع أمرنا ولم يكتمه أذلّه الله به في الدنيا، ونزع النور من بين عينيه في الآخرة، وجعل له ظلمة تقوده الىٰ النار.

يا معلّىٰ انّ التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، يا معلّىٰ انّ الله يحب أن يعبد في السر كما يعبد في العلانية، والمذيع لأمرنا كالجاحد له»[٢].

وفي الكافي عن عبدالله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله الصادق عليه‌السلام قال: «**اتقوا علىٰ دينكم واحجبوه بالتقيّة فانه لا ايمان لمن لا تقية له، انّما أنتم من الناس كالنحل في الطير، ولو أنّ الطير يعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلّا أكلته، ولو أنّ الناس علموا ما في أجوافكم انكم تحبون أهل البيت عليهم‌السلام لاكلوكم بألسنتهم ولنحلوكم بالسر والعلانية، رحم الله عبداً منكم كان علىٰ ولايتنا**»[٣] وبهذا التقويم للتقية يمكن أن نفهم أنّ التقية تمثل أساساً ومنهجاً للسلوك الاجتماعي والسياسي مع الناس،

---

(١) الوسائل: ج: ١١، ص ٤٦٥، ح: ٢٢.

(٢) الوسائل: ج: ١١، ص ٤٦٥، ح: ٢٣.

(٣) الوسائل: ح: ١١، ص ٤٦١، ح: ٧.

فانّ اهل البيت عليهم السلام حينما دعوا شيعتهم وأتباعهم للاختلاط بالناس، والتفاعل معهم، والتلاحم مع وجودهم ومجتمعهم وحكوماتهم، كما عرفنا ذلك في المعلم السابق، وهم في نفس الوقت الذي يدركون الاخطار التي سوف تواجهها هذه الجماعة بسبب الاختلافات العقائدية والسياسية والمذهبية بينهم وبين هؤلاء الناس، حيث كانت القضية الدينية هي محور كل هذه الاهتمامات في ذلك العصر، لم يكن أمامهم إلّا أن يضعوا منهجاً لشيعتهم وأتباعهم يعالجون فيه هذه الأخطار والآثار المترتبة علىٰ هذه المعاشرة، فكان هذا المنهج هو «التقية».

ومن أجل أن يؤكد أهل البيت عليهم السلام انّ هذا المنهج ليس معالجة آنية محدودة بوقت معين أوبظروف خاصة، بل هو منهج ثابت وعام، جاء هذا التقويم لهذه التقية، وأعطوها هذه القيمة المهمة.

علاقة التقية بموضوع الوحدة

وهنا يطرح هذا السؤال وهو أنّه لماذا اختبار أهل البيت عليهم السلام التقية؟ وما هو الهدف منها بشكل محدود؟ وما هو مضمونها؟ وقد أجاب أهل البيت عليهم السلام عن هذا السؤال ونظائره من الاسئلة التي تثار حول القضية.

فقدكان أمام أهل البيت عليهم السلام عدة خيارات تجاه علاقة شيعتهم وأتباعهم، وهم يمثلون النخبة القليلة في المجتمع الإسلامي الذي يعبّر عنه أهل البيت عليهم السلام بـ «الناس» و«العامّة» خصوصاً في القرون الأولىٰ للتاريخ الإسلامي.

الخيار الأول:

دعوة أتباعهم الىٰ الانعزال والانكفاء علىٰ النفس، واللجوء الىٰ الجبال والغابات وغيرها من المناطق البعيدة عن تناول السلطة والاحتكاك بالناس، والتخندق هناك من أجل المحافظة علىٰ دينهم وعقيدتهم ومبدئهم والجهر به.

وهذا الخيار لم يرض به أهل البيت عليهم السلام كما عرفناه في الأبحاث السابقة للأسباب التي اشير اليها سابقاً، لانهم بحاجة الىٰ الناس، ولأنّ لهم دوراً في التأثير وابلاغ الرسالة والحق لهؤلاء الناس، ولو عن طريق القدوة الحسنة، ولأنهم لابدّ أن يتحملوا مسؤولية الدفاع عن العقيدة الإسلامية والكيان السياسي للاسلام والامة الاسلاميّة، ويساهموا عملياً في ذلك، وغير ذلك من الاسباب.

الخيار الثاني:

الدخول في مواجهة علنية ومستمرة مع الناس في جميع تفاصيل الحياة الإسلامية، أوفي خصوص القضايا الأساسيّة منها كقضية الولاية والحكم والشعائر العباديّة، وبعض تفاصيل العقيدة المهمة.

وهذا الخيار سوف يؤدي بطبيعة الحال امّا الىٰ استئصال الجماعة الصالحة من أتباعهم، ووقوع البقية الباقية منهم في الانحراف وتغيير مذهبهم والتزاماتهم، تحت تأثير القمع والمطاردة والارهاب، وهذا الاحتمال هو

الذي كان يراه أهل البيت عليهم السلام راجحاً في تحليلهم السياسي والاجتماعي للأوضاع السياسيّة، والذي أشارت اليه بعض النصوص السابقة، وخصوصاً روايتا ابن أبي يعفور والمعلّىٰ بن خنيس السابقتين، ويؤكده أيضاً ما ورد من قول أبي جعفر الباقر عليه السلام: **«وأيّ شيء أقرّ لعيني من التقيّة، انّ التقية جنة المومن»**[1].

أوالرواية الصحيحة الاخرىٰ عن الصادق عليه السلام **«التقية ترس المؤمن، والتقية حرز المؤمن، ولا ايمان لمن لاتقية له... ان العبد ليقع اليه الحديث من حديثنا فيدين الله عزّوجلّ به فيما بينه وبينه، فيكون له عزاً في الدنيا ونوراً في الآخرة، وانّ العبد ليقع اليه الحديث من حديثنا فيذيعه فيكون له ذّلاً في الدنيا، وينزع الله ذلك النور منه»**[2].

والاحتمال الآخر هو تمكن الجماعة من الصمود والبقاء والاستمرار، وهذا مما يؤدي حتماً الىٰ انعزال الجماعة، وايجاد الاضطراب وعدم الاستقرار، والتجزئة والانفصام في المجتمع الإسلامي، وهذا ممّا لا يسنجم مع الخط الذي رسمه أهل البيت عليهم السلام في التعايش الاجتماعي مع المسلمين من الناس حتماً.

الخيار الثالث:

هو التقية، ومن خلال ملاحظتنا ونقدنا للخيارين السابقين، نجد أنّه لا مناص من التزام منهج التقية لا خوفاً ولا جبناً بل انطلاقاً من مبدأ التعايش الاجتماعي الذي أكّده أهل البيت عليهم السلام، وإلّا فان شيعة أهل البيت عليهم السلام هم أهل

---

(١) الوسائل: ج١١، ص: ٤٦٠، ح: ٤.

(٢) الوسائل: ج:١١، ص: ٤٦٠، ح:٦، وقد أخرجه عن الاصول وذيله في الهامش.

التضحية والفداء والصبر والصمود والتحمل، الذين تربّوا في مدرسة علي عليه السلام والحسن والحسين وأولادهم، ولعل الذي يؤيد هذا الفهم هو هذا التأكيد الصادر من أهل البيت عليهم السلام علىٰ أهمية التقيّة ودعوة شيعتهم الىٰ التمسك بها، مع أنّ التقية حالة نفسية طبيعيّة في النفس البشريّة، يتجه اليها الإنسان عندما يحس بالخطر، ويشعر بتصاعد نسبة احتمالات الأذىٰ والضرر.

لأنّ شيعة أهل البيت عليهم السلام قد تربّوا علىٰ المعارضة والمواجهة والصبر والصمود والتضحية والفداء والاستعداد لتحمل مختلف ألوان الأذىٰ والضرر في سبيل المبدأ والعقيدة، الأمر الذي يجعل تأثير الحالة النفسية الطبيعية تأثيراً محدوداً تتجاوزه التربية العقائدية والمبدئية لشيعتهم وأتباعهم، الأمر الذي يفرض وجود الحاجة الىٰ تربية عقائدية ومبدئيّة مماثلة توازن تلك الحالة الروحية والمعنوية العالية، وهذا المعنىٰ يبدوواضحاً جلياً من خلال لغة التأكيد والتهديد والوعيد التي استخدمها أئمة أهل البيت عليهم السلام في الدعوة الىٰ التقيّة.

كما أنّ الذي يوضح هذا الفكرة بشكل اكثر هو أننا نجد أهل البيت عليهم السلام لم يضعوا منهج التقية لمعالجة حالات الخطر والضرر فحسب، بل وضعوا هذا المنهج بشكل أوسع وأشمل، الأمر الذي يعني أنّ المنطلق في ذلك هو مبدأ (التعايش الاجتماعي)، والمحافظة علىٰ وحدة المجتمع الإسلامي وتماسكه وقوته من ناحية، وايجاد الفرصة لتكامل هذا المجتمع من خلال تأثير وحركة هذه الجماعة الصالحة فيه من ناحية اخرىٰ.

نظرة عامّة ومتكاملة لمنهج التقيّة

ولتوضيح هذا الأمر، واستكمالاً لتكوين نظرة عامة متكاملة عن منهج التقية، يحسن بنا أن نشير الىٰ الموارد التي ذكرها أهل البيت عليهم السلام لاستخدام اسلوب التقية وعلاقتها بقضية الخوف والقمع.

ومن خلال المراجعة السريعة لأخبار التقية يمكن أن نتبيّن أنّ هناك موارداً ومجالات ثلاثة عامة وأساسيّة يتم استخدام التقية فيها ذكرها أهل البيت عليهم السلام.

الأول: تعرّض الإنسان الىٰ الخطر أوالضرر

بسبب اتهامه بالتزامات عقائدية وسياسيّة أوسلوكية، ترتبط بهذه العقائد والمتبنيات، حيث وردت النصوص بوجوب «التقية» في مثل هذه الموارد، دفعاً لهذه الأخطار والأضرار.

و«التقية» هنا تعني أن يظهر الإنسان التزاماً بعقيدة أوسلوكاً علىٰ خلاف الواقع، تخلصاً من محاولات القمع والارهاب التي يبدوأنه سوف يتعرض لها اذا لم يفعل ذلك، وقد اكّد أهل البيت عليهم السلام وجوب التقية هنا ومشروعيتها، من خلال الاستشهاد بما ورد في قضية عمّار بن ياسر عندما أكره علىٰ البراءة من رسول الله صلى الله عليه وآله في الفترة المكيّة من تاريخ الدعوة الاسلاميّة، والتي أشار اليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**من كفر بالله بعد ايمانه إلّا من اكره وقلبه مطمئن**

بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾[١].

كما يستشهد في الروايات بقصة أهل الكهف الذين أظهروا الشرك بالله فترة من الزمن، وأسرّوا الإيمان حتىٰ جاءهم الفرج، ومن الواضح أنّ هذا الموقف ليس نفاقاً أوكذباً أوكفراً بالله تعالىٰ مخالفة لأحكامه، بل هو لضرورة تفرضها الأخطار التي تواجه الإنسان، أوالاضرار التي يخافها، حيث يقع التزاحم بين الأهم والمهم من هذه المصالح، فيقدم الأهم منها وهو دفع الضرر عن نفسه، ومن الواضح أنّ هذه الاضرار انّما هي ذات طابع شخصي، والموقف يتسم بهذا الطابع الشخصي أيضاً.

وقد وردت نظائر في الشريعة تؤكد هذا الاتجاه، وذكرها لايراد منه الاستدلال والقياس، وانما تقريب الفكرة الىٰ الأذهان، فأكل الميتة حرام في الشريعة، ولكن عندما يضطر الإنسان اليه يصبح حلالاً بقدر هذا الاضطرار، كما صرّح القرآن الكريم بذلك، كما أنّ الحديث الشريف نصّ علىٰ الرخصة في موارد الاضطرار في قوله ﷺ: **رفع عن أُمتي تسع وذكر ما اضطروا إليه**»[٢]،

وفي قوله تعالىٰ **﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾**[٣]، وكذلك في حديث **«لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»**[٤]، الذي يعتبره الفقهاء من القواعد المهمة التي يطبقونها في موارد نفي الأحكام الشرعية الثابتة اذاكانت «ضررية» أو«حرجية»، إلّا اذاكان الحكم الشرعي بطبيعته ضرري

---

(١) النحل:١٠٦.

(٢) الوسائل كتاب الأمر والنهي باب ٢٥، ح: ١٠.

(٣) الحج: ٧٨.

(٤) الوسائل ج١٧، ص:٣٧٦.

أوحرجي، كالجهاد في سبيل الله، أوالانفاق في سبيل الله، أوغيرهما من الموارد.

وفي هذا المجال نجد أهل البيت عليهم السلام يضعون حدّاً وسقفاً لاستخدام التقية وهو ما اذاكانت التقية تؤدي الىٰ الاضرار بالآخرين، وسفك دمائهم، أوتعرضهم للأخطار، كما في قول الإمام الباقر عليه السلام في حديث معتبر «**انّما جعل التقية ليحقن بها الدم فاذا بلغ الدم فليس تقية**»[١].

وكذلك اذاكانت التقية تؤدي الىٰ التهاون في نصرة الإسلام والمسلمين التي تفرضها موازين الجهاد في سبيل الله فانها تصبح غير مشروعة ولا مبررة، فقد ورد في الحديث المعتبر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**لم تبق الارض إلّا وفيها منّا عالم فاذا بلغت التقية الدم فلا تقية، وايم الله لو دعيتم لتنصرونا لانفعل انّما نتقي!!، ولكانت التقية أحب اليكم من آبائكم وامهاتكم، ولو قد قام القائم ما احتاج الى مسائلتكم عن ذلك، ولأقام في كثير منكم من أهل النفاق حدّ الله**»[٢].

وفي حديث آخر يقدم الإمام من أهل البيت عليهم السلام القاعدة العامة لهذه التقية «لأنّ للتقية مواضع من أزالها عن مواضعها لم تستقم له، وتفسير ما يتقى: مثل أن يكون قوم سوء ظاهر حكمهم وفعلهم علىٰ غير حكم الحق وفعله، فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية مما لا يؤدي الىٰ الفساد في الدين فانّه جائز»[٣].

كما انه ورد التأكيد من أهل البيت عليهم السلام علىٰ أنّ الإنسان يجب عليه ان

---

(١) الوسائل:ج:١١،ص:٤٨٣، ح:١.

(٢) الوسائل ج:١١، ص٤٨٣، ح:٢.

(٣) الوسائل: ج:١١، ص٤٦٩، ح:٦.

يبذل ماله ونفسه دون دينه(١).

وقد ترك أهل البيت عليهم السلام تقدير الضرر في هذا النوع من التقية الىٰ الاشخاص أنفسهم، فقد ورد في الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**التقية في كل ضرورة وصاحبها أعلم بها حين تنزل به**»(٢). و «التقية في كل شيء يضطر اليه ابن آدم فقد أحلّه الله له».

ولكن شددوا في التقيد بالضرر، وعدم التهاون، ولذلك نجد أهل البيت عليهم السلام يستثون بعض الموارد من التقيّة لأنهم يشخّصون أنّ الضرورة فيها ليست بالمستوىٰ الذي تسمح لهذا الإنسان ان يترك الواجب أو يخالف النواهي والشروط الشرعيّة، فقد روىٰ الكليني في الكافي بسند صحيح عن زرارة بن أعين قال: «**قلت له (الصادق عليه السلام) في مسح الخفين تقيّة؟**

فقال: ثلاثة لا أتقي فيهنّ أحداً شرب المسكر، ومسح الخفين، ومتعة الحج، قال زرارة: ولم يقل الواجب عليكم أن لا تتقوا فيهنّ أحداً»(٣).

وفي كتاب الاحتجاج للطبرسي في رواية عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام «أنّ الرضا عليه السلام جفا جماعة ممن الشيعة وحجبهم، فقالوا: يا ابن رسول الله، ما هذا الجفا العظيم والاستخفاف بعد الحجاب الصعب؟ **قال لدعواكم أنكم شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وأنتم في أكثر أعمالكم مخالفون ومقصرون في كثير من الفرائض، وتهاونون بعظيم حقوق اخوانكم في الله وتتقون حيث لاتجب التقيّة، وتتركون التقيّة حيث لابدّ من التقية**»(٤).

---

(١) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٥١، ح: ٢، وص ١٣٩. ح: ٢.

(٢) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٦٨، ح: ٢.

(٣) الكافي: الباب ٣٨ من أبواب الوضوء، ح: ١، والباب ٢٢ من أبواب الاشربة المحرمة، ح: ١.

(٤) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٧٠، ح: ٩.

الثاني: كتمان الأسرار

وحجبها عن الأعداء أوالمتربصين أوالطغاة أوالغوغاء من العامة الذين ينعقون مع كل ناعق، ويميلون مع كلّ ريح، ولا شك أنّ الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم وأتباعهم كانوا يبثون أفكاراً، ويلتزمون بعقائد وسياسات تعرضهم لمختلف ألوان الاضطهاد والقمع لو تمّ الكشف عنها أوالالتزام بها، وفي مقدمتها نظريتهم في الخلافة والولاية، فانهم كانوا يرون أنّ الخلافة والولاية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله انّما هي لعلي عليه السلام بالنص من قبل النبي صلى الله عليه وآله على ذلك، كما كانوا يرون في الخليفة شروطاً ومواصفات لا تنطبق على الخلفاء الذين كانوا يعاصرونهم، خصوصاً في زمن الامويين والعباسيين الذين كانوا يمارسون ألواناً من الظلم والاستهتار ويتصفون بالانحراف في السلوك والسياسات، كما انهم في مذهبهم في العقائد والفقه كانوا يأخذون عن القرآن الكريم ورسول الله صلى الله عليه وآله والسلسلة الذهبية المتمثلة بعلي عليه السلام وأولاده الطاهرين، بخلاف عامة المسلمين الذين كانوا يأخذون عن الصحابة بشكل عام دون تمييز بعضهم عن البعض الآخر مع اختلاف الصحابة في التقوى والفهم والمعرفة والأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، بل كان عامة المسلمين لا يقتصر في ذلك على الأخذ من الصحابة، بل كانوا يأخذون من المجتهدين والحكّام وما تروجه السلطة من عقائد وأحكام.

وبذلك أصبح لأهل البيت عليهم السلام واتباعهم خط سياسي وثقافي ومذهبي يدلّ على وجودهم وحركتهم، يتوجس منه الحكّام والظالمون وأعوانهم

والملتزمون بسياساتهم، ويحرضون عليه العامة من الناس، بالاضافة الىٰ فئات الحساد والمنافسين وورثة الأحقاد والعداوات، وقد مارس الحكّام - بالفعل - ألواناً من الاضطهاد والقمع والمطاردة والمراقبة والاحصاء للأنفاس بسبب المواجهات التي حصلت في العالم الإسلامي، وكان النهوض والثورة وانتفاضات الاصلاح والاحتجاج والرفض للظلم والاضطهاد منذ زمن الانتفاضة علىٰ الخليفة الثالث (عثمان) وحتىٰ ملحمة كربلاء ومقتل الحسين عليه السلام ثم مصارع الكرام من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله من آل الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام في زمن الامويين والعبّاسيين.

كل ذلك وضع أتباع أهل البيت عليهم السلام في الخيارات السابقة الثلاثة التي أشرنا اليها، وجعل كل تصرف أوسلوك لهم تحت الرقابة ويؤشر الىٰ طبيعة التزاماتهم وعقائدهم، فدعا أئمة أهل البيت عليهم السلام شيعتهم الىٰ التستر والكتمان لهذه المؤشرات، واكّدوا من أجل الحفاظ علىٰ الجماعة الصالحة من جهة، ووحدة المسلمين واستقرار المجتمع الإسلامي من جهة اخرىٰ علىٰ هذا الكتمان الذي سموه بالتقية أيضاً.

فقد روىٰ الكليني في الكافي بسند صحيح عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**يا سليمان انكم علىٰ دين من كتمه أعزّه الله ومن أذاعه اذلّه الله**»[1] .

«وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: «**وددت والله اني افتديت خصلتين في الشيعة**

---

(١) الوسائل: ج:١١، ص ٤٨٤، ح:١.

لنا ببعض لحم ساعدي: النزق وقلة الكتمان»[١] «وعن عبد الاعلىٰ قال سمعت **أبا** عبدالله عليه السلام يقول: **انّه ليس احتمال أمرنا التصديق له والقبول فقط، من احتمال أمرنا ستره وصيانته عن غير أهله، فاقرأهم السلام وقل لهم: رحم الله عبداً اجتّر مودة الناس الينا حدّثوهم بما يعرفون واستروا عنهم ما ينكرون...»**[٢].

ويشتد الإمام الصادق عليه السلام في الانكار علىٰ مذيعي الاسرار والذين يعرّضون إمامهم وجماعتهم للمهالك.

«وعن القاسم شريك الفضل وكان رجل صدق قال: سمعت ابا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: **خلق في المسجد يشهروننا ويشهرون أنفسهم اولئك ليسوا منّا أولا نحن منهم، انطق فاداري واستر فيهتكون ستري، هتك الله ستورهم يقولون: امام، والله ما أنا بامام إلّا من أطاعني، فاما من عصاني فلست لهم بامام لم يتعلقون باسمي؟ الا يكفّون اسمي من أفواههم، فوالله لا يجمعني الله واياهم في دار»**[٣].

وقد تقدمت رواية عبد الله بن أبي يعفور والمعلّىٰ بن خنيس والتي عبرّت عن هذه الحقيقة بشكل واضح، وكذلك الروايات التي تقول انّ التقية جنة المؤمن وحرز المؤمن.

وفي هذا السراط جاءت الروايات التي تأمر بالكف عن الجدال في الدين، فانّ الأئمة عليهم السلام مع ايمانهم بانهم علىٰ الحق والهدىٰ، ومعرفتهم بقوة حجتهم والتزامهم بمنهج الحريّة في الفكر -كما سوف نعرف - حثّوا بعض

---

(١) الوسائل: ج: ١١، ص: ٤٨٤،ح: ٥.

(٢) الوسائل، ج: ١١، ص: ٤٨٤،ح: ٥.

(٣) الوسائل: ج: ١١، ص٤٨٥، ح: ١.

أتباعهم عن الامتناع عن الدخول في الجدال والمـناقشات، (فـعن عـلي بـن يقطين قال: قال ابو الحسن الكاظم عليه السلام: **مر أصحابك أن يكفّوا السنتهم ويدعوا الخصومة في الدين ويجتهدوا في عبادة الله عزوجل**»[1].

«وفي حديث آخر صحيح قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام «**احذروا عواقب العثرات**»[2] .

«وروىٰ الصدوق في معاني الأخبار بسند صحيح عن هشام بن سالم قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: ما عبد الله بشيء أحب اليه من الخباء، قلت: وما الخباء / قال: **التقية**»[3] .

«وعن سفيان بن سعيد قال: سمعت ابا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: **عليك بالتقية فانها سنة ابراهيم الخليل** عليه السلام... الىٰ أن قال: **يا سفيان من استعمل التقية في دين الله فقد تسنمّ الذروة العليا من القرآن وانّ عزّ المؤمن في حفظ لسانه ومن لم يملك لسانه ندم**...الحديث»[4].

وتتضح أهمية التقية بمعنىٰ الكتمان في نظر أهل البيت عليهم السلام من خلال النتائج والآثار التي كانوا يتوقعونها بسبب موقف الحكومات الظالمة، أوعمليات التشهير والتحريف والاثارة في أوساط جمهور الأُمة ضد الجماعة الصالحة وأهل البيت عليهم السلام أنفسهم، بعد أن أصبحت العقول العامة مغلّقة بالاطر التي وضعتها السلطة أوفقهاؤها، أوتحول القضايا الجزئية

---

(١) الوسائل: ج ١١، ص ٤٥٨، ح: ٢٧.

(٢) الوسائل ج: ١١، ص: ٤٦٠، ح: ٥.

(٣) الوسائل، ج ١١، ص ٤٦٢، ح: ١٤.

(٤) الوسائل، ج ١١، ص ٤٦٣، ح: ١٦.

التفصيلية في المتبنيات العقائدية والفقهية محاور للصراع والتخندق والتعصب، فهناك العشرات من الأحاديث التي وردت في هذا الموضوع تومىء الى هذا التفسير، وهذه الحقيقة.

«ففي الكافي بسند صحيح عن عثمان بن عيسىٰ عن أبي الحسن عليه السلام قال: **ان كان في يدك هذه شيء فان استطعت ان لاتعلم هذه فافعل**، قال: وكان عنده انسان فتذاكروا (الاذاعة) فقال: **احفظ لسانك تعز، ولا تمكّن الناس من قياد رقبتك فتذل**»[(١)].

«وفي سند صحيح عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: **يحشر العبد يوم القيامة وما ندا دماً، فيدفع اليه شبه المحجمة أوفوق ذلك، فيقال هذا سهمك من دم فلان، فيقول يا ربّ انك تعلم انك قبضتني وما سفكت دماً**، فيقول: بلىٰ ولكنّك سمعت من فلان رواية كذا وكذا فرويتها عليه فنقلت حتىٰ صارت الىٰ فلان الجبّار فقتله عليها وهذا سهمك من دمه»[(٢)].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: **من أذاع علينا شيئاً من أمرنا فهو كمن قتلنا عمداً ولم يقتلنا خطأً**»[(٣)].

وهذا الموقف الذي يعبّر عنه بالتقية منهج عام تلتزم به كل الجماعات والتنظيمات التي تتعرض الىٰ القمع، بل تلتزم به كل الدول والحكومات وكل العقلاء والحكماء الذين يشعرون بالخطر عند افشاء أسرارهم.

---

(١) الوسائل ج١١، ص٤٩٣، ح:٥.

(٢) الوسائل ج١١، ص٤٩٥، ح:١٤.

(٣) الوسائل ج١١، ص٤٩٦،ح:١٦.

الثالث: المجاملة والتلطّف وحسن المعاشرة مع الناس

وقد انطلق أهل البيت عليهم السلام في هذا المورد من مبدأ التعايش الاجتماعي بشكل واضح من ناحية، ومن مبدأ أخلاقي عام اهتم به أهل البيت عليهم السلام في موروثهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله في العمل الاجتماعي والذي تكون له آثار ايجابية حسنة تنعكس - بطبيعة الحال - علىٰ قضية التعايش الاجتماعي أيضاً.

أما مبدأ التعايش الاجتماعي فقد تحدثنا عنه في المعلم الثالث، وأمّا المبدأ الاخلاقي فهو مبدأ حسن المعاملة والتودد مع الناس، وابداء المرونة والملاينة معهم، والمداراة لهم، والبشاشة في وجوههم، والذي يعبّر عنه الشارع المقدّس بحسن الخلق والمعاشرة.

وقد وردت روايات عديدة عن أهل البيت عليهم السلام وعلىٰ رأسهم الرسول صلى الله عليه وآله تؤكد علىٰ هذا المبدأ الأخلاقي الرفيع، حيث ذكرنا بعضها في المعلم السابق.

«فقد روىٰ البرقي عن الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **ثلاث من لم يكنّ فيه لم يتم له عمل: ورع يحجزه عن معاصي الله، وخلق يداري به الناس، وحلم يردّ به جهل الجاهل**»[1].

«وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **التودد الىٰ الناس نصف العقل**»[2].

«وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال الحسن بن علي عليه السلام: **القريب من**

(١) الوسائل:ج٨ ص٤٠٤، ح:٩.

(٢) الوسائل: ج٨ ص٤٣٣، ح:٥.

قرّبته المودّة وان بعد نسبه، والبعيد من بعدّته المودة وان قرب نسبه، لاشيء أقرب الى شيء من يد الىٰ جسد، وانّ اليد تغل فتقطع فتحسم»[1] .

«وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: **مجاملة الناس ثلث العقل»**[2].

«وفي حديث صحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله **ألا اخبركم بمن تحرم عليه النار غداً، قالوا:** بلىٰ يا رسول الله قال صلى الله عليه وآله: **الهيّن القريب اللّين السهل»**[3].

«وفي الحديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: أتىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله رجل فقال: يا رسول الله أوصني، فكان فيما أوصاه أن قال: **الق أخاك بوجه منبسط»**[4].

«وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **يا بني عبد المطلب انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فالقوهم بطلاقة الوجه وحسن البشر»**[5]، وقد عقد صاحب الوسائل باباً مستقلاً لاستحباب مداراة الناس ضمّنه عدداً من الأحاديث منها:

«روىٰ الكليني بسند صحيح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **أمرني ربّي بمدارة الناس كما أمرني بأداء الفرائض»**[6].

«وروي أيضاً بسند عن حبيب السجستاني عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: **في التوراة مكتوب فيما ناجى الله به موسىٰ بن عمران: يا موسىٰ اكتم مكتوم سرّي عن**

---

(١) الوسائل: ج٨، ص٤٣٣، ح:٤.

(٢) الوسائل: ج٨، ص٤٣٤، ح:١.

(٣) الوسائل: ج٨، ص٥١١، ح:١.

(٤) اصول الكافي ج٢، باب حسن البشر، ح:٣، ص:١٠٣.

(٥) اصول الكافي ج٢، باب حسن البشر، ح:٣، ص:١٠٣.

(٦) اصول الكافي ج٢، باب المداراة، ح:٤، ص١١٧.

سريرتك وأظهر في علانيتك المداراة عنّي لعدوي وعدوك من خلقي ولا تستسب لي عندهم باظهار مكتوم سرّي فتشرك عدوك وعدوي في سبّي»[١].

وقد مرّت علينا وصية الإمام علي عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية بهذا الشأن.

«روىٰ البرقي في المحاسن بسند صحيح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله عزوجل: **﴿اولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا﴾** قال: **بما صبروا على التقية ﴿ويدرؤن بالحسنة السيئة﴾** قال: **الحسنة «التقية» والسيئة «الإذاعة»، وقوله: ﴿ادفع بالتي هي أحسن﴾** قال: «**التي أحسن (التقية)**»»[٢].

وهذا الحديث يجمع بين موارد التقية الثلاثة في تفسيره لهذه الآيات الثلاثة، ويكون المورد الثالث هو الآية الأخيرة بقرينه قوله تعالى: **﴿فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾**[٣] .

«وفي حديث الصدوق في معاني الأخبار بسنده عن سفيان بن سعيد قال: سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام يقول: **عليك بالتقية فانها سنة إبراهيم الخليل عليه السلام**... الىٰ أن قال: **انّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان اذا أراد سفراً دارىٰ بعيره، وقال صلى الله عليه وآله: أمرني ربّي بمداراة الناس كما أمرني باقامة الفرائض، ولقد أدبه ربه عزوجل بالتقية فقال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم * وما يلقّاها إلّا الذين صبروا وما يلقّاها إلّا ذوحظ عظيم﴾**[٤] .

يا سفيان من استعمل التقية في دين الله فقد تسنّم الذروة العليا من القرآن، وان عزّ

---

(١) اصول الكافي: ج٢، باب المداراة، ح:٣، ص١١٧.

(٢) الوسائل: كتاب الأمر والنهي، باب: ٢٤، ح:٢.

(٣) فصلت: ٣٤.

(٤) فصلت: ٣٤ ـ ٣٥.

المؤمن في حفظ لسانه ومن لم يملك لسانه ندم»[١]، وفي حديث آخر رواه الصدوق في معاني الأخبار يذكر فيه أقسام درجات الناس، ويضرب له مثلاً في التعامل معهم ثم يقول في آخره: **(أما علمت أنّ امارة بني أميّة كانت بالسيف والعسف والجور، وأن إمارتنا** (إمامتنا) بالرفق والتآلف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع والاجتهاد، فرّغبوا الناس في دينكم وما أنتم فيه»[٢].

---

(١) وسائل الشيعة ج١٦، كتاب الامر والنهي، باب وجوب التقية ح١٧.

(٢) الوسائل: ابواب الأمر والنهي: الباب ١٥، ح:٩.

الفصل الثاني
هامش الاختلاف والتعدد

أهمية وجود هامش الاختلاف

بعد أن عرفنا المعالم الأساسيّة في نظرية أهل البيت ﷺ تجاه الوحدة في المجتمع الإسلامي.

لابدّ أن نعرف أنّ من جملة الأُسس والمعالم لهذه النظرية هو الايمان بوجود هامش للاختلاف والتعدد بين المسلمين، يمكن ان يستوعب الاختلاف في الفهم والاجتهاد والمواقف مع قطع النظر عن مدىٰ صحة هذه الاجتهادات والمواقف، ومدىٰ انسجامها مع الحق والصواب، ذلك ان المجتمع الإسلامي الواسع اذا اريد له النمو والتطور والقدرة علىٰ الاستيعاب والشمول والتعايش بين جماعاته وأقوامه، فلا بد من وجود هذا (الهامش) الذي قد يتسع أويضيق بحسب الظروف والأوضاع التي يعيشها المجتمع الإسلامي، ذلك ان هذا الهامش سوف يكون صيانة ووقاية لهذه الوحدة الإسلامية، ودرعاً يجنبها الازمات والاختلافات، ويحفظها من تحول هذه الاختلافات الطبيعية بسبب الضغوط الىٰ متفجرات تنسف هذه الوحدة أوتمزقها أوتشوه صورتها.

ولعل أحد الاسباب الرئيسية لما شهده العالم الإسلامي في تاريخه الطويل من اختلافات وصراعات حادة سفكت فيها الدماء وشرد فيها الآلاف من أبناء هذه الجماعة أوتلك، هو عدم وجود مثل هذا الهامش المعترف فيه (واقعياً) في النظرية وان كانت بعض منطلقاته أحياناً بعيدة عن الحق أوالصواب.

ففي التجربة الاولىٰ لصدر الإسلام في زمن النبي ﷺ، نجد أنّ تحرّك المنافقين وبعض ضعفاء النفوس، وكذلك بعض أهل الكتاب بالرغم من أنّه كان مداناً من قبل القرآن الكريم والإسلام إلّا انّه كان مسموحاً به، والقرآن الكريم مليء بالملاحظات ومعالجة الشبهات التي كان يثيرها هؤلاء، والاجوبة عن الاسئلة والاستفهامات وكذلك اعطاء المواقف تجاه تحركهم، ولم تدخل الدولة الإسلامية معهم في صراع مسلّح أومطاردة قمع واستئصال، أوقرار منع للأفكار والطروحات والمناقشات، الىٰ أن تطور وضع المنافقين الىٰ حدّ الدخول في التآمر والاصطفاف مع الأعداء الخارجيين الذين كانوا يقاتلون المسلمين، عندئذ جاء التهديد لهم بالنفي أوالقتل، كما هو الحال في سورة الأحزاب بعد الأحداث التي شهدها المسلمون فيها:

﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلّا قليلاً * معلونين اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلاً﴾[1].

هذا فضلاً عن الآراء ووجهات النظر المختلفة التي كانت تصدر عن بقية المسلمين الصالحين، والتي كان يعالجها القرآن الكريم بطريقة أو بأُخرى،

---

(١) الاحزاب: ٦٠-٦١.

سواء كانت على المستوىٰ السياسي أوالاجتماعي أوالفكري أوالعقائدي، حيث كان القرآن الكريم والنبي الأعظم صلى الله عليه وآله هو الملجأ لحلّ هذه الاختلافات والاجتهادات:

﴿ واعلموا انّ فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكنّ الله حبّب اليكم الايمان وزيّنه في قلوبكم وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان اولئك هم الراشدون ﴾(١).

حيث جاءت هذه الآية في سياق قوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا علىٰ ما فعلتم نادمين ﴾(٢).

نظرية أهل البيت عليهم السلام تتميز بوجود هذا الهامش

ومن هذا المنطلق نجد أنّ أحد الامتيازات المهمة التي تمتاز بها نظرية أهل البيت عليهم السلام بين المذاهب الاسلاميّة هو وجود التصور عن هذا الهامش، بخلاف النظريات الاخرىٰ في التاريخ التي اتسمت بالالتزام بالعنف والجور لفرض الرأي الواحد علىٰ الأمّة بحيث تتحول الوحدة الىٰ وحدة مفروضة من الخارج علىٰ الأمّة بالقوة والعنف، ولعلّ الحديث الذي ذكرناه في آخر بحث (التقية) الذي رواه الصدوق في معاني الأخبار يعبّر عن هذا الاتجاه النظري:

«أما علمت انّ امارة بني أميّة كانت بالسيف والعسف والجور، وان امارتنا بالرفق والتآلف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع والاجتهاد، فرّغبوا الناس في دينكم وما

---

(١) الحجرات:٧.

(٢) الحجرات:٦.

أنتم فيه»[١].

ولكنّ هذا الهامش لايصح ان يبقىٰ مفتوحاً بـدون حـدود، وإلّا لتـحول المجتمع الإسـلامي الىٰ النـزاع والصـراع والاتـجاه الىٰ النـظرية التـي تـؤمن بالفرقة، والتمييز بين جماعات المسلمين، كما شاهدنا ذلك في بـعض أدوار التاريخ الإسلامي وفي عصرنا الحاضر، وهذه الحدود يجب أن تتضح سـواء علىٰ مستوىٰ المجالات، أوعلىٰ مستوىٰ الممارسة الفردية والجماعيّة.

وسوف نشير في البداية الىٰ المجالات التي تؤمن نظرية أهل البيت عليهم السلام بوجود هذا الهامش من الاختلاف والتعدد من نـاحية، والحـدود المـوضوعة لحـركة هـذا الهـامش، ثـمّ بـعد ذلك نشـير بشكـل اجـمالي الىٰ النـظريتين الأُخريتين - والتي تمثل نظرية أهل البيت عليهم السلام (النظرية الوسط) بينهما فـي الوحدة الإسلامية، وفي حركتها في التاريخ الإسلامي.

أولاً: مجالات الهامش التعددي

يمكن أن نشير في تشخيص هذه المجالات الىٰ ثلاثة مجالات رئـيسيّة يمكن استنباطها من نظرية أهل البيت عليهم السلام سواء علىٰ مستوىٰ الطرح النظري، أومستوىٰ الممارسة لهم عليهم السلام.

الأول: الحرية الفكرية والعقائدية:

لا شك أنّ الإسلام الذي جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله مـن عـند الله عـزّوجلّ

---

(١) وسائل الشيعة ج: ١١، ص ٤٣٠.

يملك صيغة عقائدية وفكرية واحدة ومحددة، تضمنها القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة.

ولا شك أنّ أهل البيت عليهم السلام يرون في أنفسهم أنهم أعلم الناس بالقرآن الكريم، وبالسنّة النبوية المباركة، ليس علىٰ مستوىٰ الحفظ وتفسير اللفظ وفهم المعاني العالية لهما، بل علىٰ مستوىٰ تفسير المعنىٰ وتشخيص المصاديق الخارجية لهذه المفاهيم في عصر النبوة، أوفي العصور التالية الاخرىٰ، حيث أنّ القرآن الكريم حيّ باق، وكذلك السنّة النبويّة، ولهما في كلّ عصر مصاديق ينطبقان عليها، وهو ما يمكن أن نشير اليه بكلمة التأويل، كما يفهم ذلك من استخدام القرآن الكريم لها بعيداً عن الاستعمال الاصطلاحي لها، الذي قد يعني به علماء القرآن أحياناً حرف اللفظ والمعنىٰ الىٰ غير الظاهر منهما.

وقد دعا أهل البيت عليهم السلام المسلمين جميعاً الىٰ الأخذ عنهم، وانتقدوا اولئك الذين ذهبوا الىٰ اعتماد الطرق والوسائل الاخرىٰ بعيداً عن هذا المنهل الصافي.[1].

ونحن وان لم نكن في هذا البحث بصدد الحديث عن هذا الجانب من نظرية أهل البيت عليهم السلام ،ولكن هناك الكثير من النصوص والاعتبارات تؤيد هذا التصور، وفي مقدمة هذه النصوص حديث الثقلين المتواتر: «**انّي تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبداً، ولن يفترقا حتىٰ يردا عليّ**

(١) يمكن الحصول علىٰ النصوص التي تناولت هذا الموضوع في ابواب صفات القاضي من كتاب القضاء الوسائل: ج:١٨.

الحوض: كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

وكذلك الاعتبار الواضح الذي يقول ان أهل البيت عليهم السلام أدرىٰ بالذي فيه باعتبار اجماع المسلمين علىٰ خصوصية علي عليه السلام في ارتباطه برسول الله صلى الله عليه وآله في جانب العلم والمعرفة، والأخذ عنه.

وبالرغم من كل ذلك نجد أنّ المسلمين اختلفوا في فهم القرآن الكريم وآياته وان اتفقوا علىٰ ثبوت نصه كما اختلفوا في فهم السنة النبويّة الشريفة، وفي اثبات نصوصها، وكان للفاصل الزمني والظروف السياسيّة والاجتماعيّة والأوضاع النفسيّة والأخلاقية والثقافية للأُمم التي دخلت الإسلام تأثيرات مختلفة أو متباينه في هذا الفهم والاختلاف، بالاضافة الىٰ الأهواء والمصالح والجهل، والتي كان لها آثار سيئة وحادّة في نتائج هذا الاختلاف، وتعدد الاجتهادات والتفسيرات والفهم لهذه النصوص المقدّسة.

وازاء هذا الواقع وعلىٰ المستوىٰ العقائدي، عمل أهل البيت عليهم السلام علىٰ توضيح الحقائق التي يعرفونها بالحكمة والموعظة الحسنة، واسسوا المدارس، وخرّجوا العلماء والمتكلمين، ورسموا الخطط والمناهج في الوصول الىٰ الهدف المقدّس المتمثل بالمحافظة علىٰ الإسلام النقي المصفّى[1].

ولكن الىٰ جانب ذلك وجدوا أنّ من الضروري من أجل حفظ وحدة المسلمين وعلاقاتهم وروابطهم أن يتمّ التعامل مع هذا الاختلاف بواقعية تفسح المجال للتفكير الحر، واستخدام العقل والمنطق والحركة الذهنية والفكرية من أجل الوصول الىٰ الحقيقة والتكامل في طريق الوصول اليها.

---

(١) تناولنا هذا الموضوع بالبحث في كتابنا (دور الائمة في الدفاع عن الإسلام).

وتوجد في تاريخ مدرسة أهل البيتعليهم السلام محطّات ومؤشرات واضحة تدلل علىٰ هذا التطور النظري والممارسة العملية، ففي حياة الإمام علي عليه السلام التي تمثل احدىٰ المحطّات والمقاطع المهمة في هذه المدرسة، نجد مجموعة من المؤشرات علىٰ هذا التصور:

أ - تصدّي الإمام علي عليه السلام الىٰ جميع المشكلات والمسائل العلمية والعقائدية التي كان يطرحها أهل الكتاب وغيرهم ممن انفتحت عليهم الدولة الإسلامية في ظروف توسعها، حيث كان الكثير من علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ والمجوس يحاولون التعرف علىٰ الحقائق الإسلامية، كما كانوا في نفس الوقت يجادلون ويدافعون عن عقائدهم بعد الغزو الثقافي والعسكري الإسلامي للعراق والشام واليمن ومصر وأفريقيا وغيرها من البلاد التي وقعت تحت الفتح الإسلامي، خصوصاً في زمن الخليفة الثاني والثالث.

وكانت تجري بسبب ذلك مطارحات ومناقشات فكرية ودينية وعقائدية بينهم وبين الإمام علي عليه السلام كانت معروفة في تلك الفترة ودونتها كتب التاريخ خصوصاً في أخبار أهل البيتعليهم السلام وكانت من الميزات التي تميّز بها الإمام علي عليه السلام حتىٰ قال عنها الخليفة الثاني (عمر) «لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن علي».

ب - دلالة الإمام علي عليه السلام للامة والمسلمين بشكل عام أن يسألوه عن شؤونهم الحياتية والعقائدية والعلمية، والقضايا المرتبطة بالكون والارض والسماء، الأمر الذي يفتح مجالاً واسعاً للنظر والتفكير والتأمل

والمطارحة الفكرية والعقائدية.

وقد ورد في نهج البلاغة الاشارة الىٰ ذلك في قوله عليه السلام: **«فاسألوني قبل أن تفقدوني، فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدى فئة وتضل فئة إلّا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحطّ رحالها ومن يقتل من أهلها قتلاً ومن يموت منها موتاً...»**(١).

«انّ أمرنا صعب مستصعب لا يحمله إلّا عبد مؤمن امتحن الله قلبه للايمان ولا يعي حديثنا إلّا صدور أمينة وأحلام رزينة، أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فلأنا بطرق السماء أعلم منّي بطرق الأرض»(٢).

ج - التراث الفكري والعقائدي الذي تركه الإمام عليّ عليه السلام من خلال خطبه ورسائله وأحاديثه وقضاءه وكلماته القصار، فانّ هذا التراث مليء بمعالم هذه الحرّية الفكريّة والعقائدية، حيث يتناول عليه السلام مختلف القضايا المرتبطة بالعقائد والمجتمع والتاريخ بالطرح والبحث والمناقشة والاستدلال، الامر الذي يفتح آفاقاً واسعة في التفكير والفهم، ويمكن أن يعتبر ما يضمّه نهج البلاغة الذي جمع فيه الشريف الرضي المختار من خطبه ورسائله وكلماته القصار نموذجاً رائعاً لهذا التراث الفكري العقائدي والتاريخي، بالاضافة الىٰ الجانب الأدبي والأخلاقي.

حيث تناول الإمام علي عليه السلام قضايا التوحيد وصفات الله وعالم الغيب والنبوة والامامة والسياسة والمجتمع والتاريخ والحياة وعالم الآخرة وغيرها

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة:٩٣.

(٢) نهج البلاغة: الخطبة:١٨٩.

من القضايا الكونية والإنسانية بالبحث والتحليل والمناقشة والاستدلال، مما لم يكن معروفاً في ذلك العصر، بل كان الاتجاه الذي يرويه التاريخ عن الخليفة الثاني هو محاولة غلق أبواب التفكير والبحث في مثل هذه القضايا تحت شعار (في كتاب الله وسنة نبيه ما يكفينا)، وتم إحراق مكتبة الاسكندرية التي استولى عليها المسلمون في فتحهم لمصر تحت هذا الشعار، كما تم منع تدوين السنة النبوية تحت شعار عدم منافسة القرآن والمحافظة على نصه، وتمّ المنع عن السؤال عن الحقيقة الإلهية وصفات الله تحت شعار الحرص على التوحيد والنصوص المقدسة.

ونجد مثل هذا الانفتاح في معالجة القضايا الفكرية والعقائدية والتاريخ والمجتمع في مدرسة الإمام الصادق والإمام الكاظم وفي عهديهما، حيث انتشرت الفلسفة اليونانية والهندية والاغريقية في البلاد الإسلاميّة، بسبب انفتاح العالم الإسلامي من جهة ووجود الفرصة السياسيّة في الفترة التاريخية التي شهدت انشغال الدولة الأُموية في أواخر أيامها، والدولة العباسيّة في أوائل أيامها، بالمحافظة على وجودهما وترتيب أوضاعهما الداخلية، فظهرت مذاهب الزندقة والالحاد، والمدارس الفلسفية والكلامية المختلفة.

وقد قام أئمة أهل البيت عليهم السلام بمعالجة هذا الموضوع عن طريق حرية الفكر والعقيدة، وفتح باب الحوار والمناقشات، وتربية العلماء والمتكلمين القادرين على مقارعة الفكر بالحجة والدليل والبرهان.

وفي مقابل هذا الاتجاه كان الاتجاه الآخر الذي استخدم اسلوب القمع وملاحقة الزندقة والالحاد بالمطاردة والاتهامات وأحكام القتل والسجن.

حيث استغل هذا الاسلوب لمطاردة كل الأحرار المطالبين بالعدل والاصلاح والرافضين للظلم والاستعباد، كما نجد في أيام المأمون والمعتصم العباسي كيف تمكن أئمة أهل البيت عليهم السلام (الرضا والجواد) من مواجهة مختلف علماء هذا العصر من أحبار أهل الكتاب أوالمتكلمين والفقهاء المسلمين في المجالس العلمية التي كان يعقدها المأمون والمعتصم، ويدور فيها الحوار والنقاش بشكل واسع ومفتوح، وكان يشارك فيها أئمة أهل البيت عليهم السلام بشكل فعّال[1]. كل ذلك يدلل على حقيقة ضرورة وجود هذا الهامش من التعددية في المجتمع الإسلامي ليكون قادراً على استيعاب هذه التطورات ومواكبتها وبقاء المجتمع الإسلامي في موقع الريادة والقيادة والقيمومة على المجتمعات الأُخرىٰ، وإلّا فسوف يصاب هذا المجتمع والأُمة الإسلاميّة بالانطواء ثم المحاصرة ثم السقوط، أما الغزوالثقافي والفكري للمجتمعات الأُخرىٰ، كما حدث ذلك في العصور المتأخرة للأُمّة الإسلامية.

الثاني: الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية الفقهيّة

تعتبر قضية فتح باب الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من أهم القضايا التي واجهت المسلمين في الصدر الأول الإسلامي وحتى يومنا الحاضر ذلك أنّ المسلمين وان كانوا قد أُمروا بالأخذ من الكتاب الكريم والسنّة النبويّة، ولكن اختلفوا ـ كما أشرنا ـ في فهم القرآن الكريم والسنّة،

---

(١) كل هذه الأحداث والقضايا مدوّنة في كتب الحديث والتاريخ والمراجع المختصة، يمكن مراجعتها من خلال مراجعة تاريخ هؤلاء الأئمة الاعلام عليهم السلام .

وكذلك في ثبوت السنّة نفسها، ومن وجهة نظر أتباع أهل البيت عليهم السلام فانّ مرجعهم في فهم القرآن والسنّة وكذلك في ثبوتها انما هم العترة الطاهرة التي تعتبر الثقل الآخر، كما جاء في الحديث، ولكن مع ذلك نجد أنّ أصحاب الأئمة عليهم السلام كانوا يواجهون هذه المشكلة في بعض أبعادها، باعتبار الفاصل المكاني وعدم تيسر الوصول الى الأئمة أنفسهم، بالاضافة الى اختلاف النقل عنهم، وبعد غيبة الإمام المهدي عليه السلام واجهوا قضية فهم النص وثبوته.

كل ذلك جعل قضية الاجتهاد من أجل الوصول الى الحكم الشرعي من القضايا المهمة والأساسيّة، وقد تكونت في العالم الإسلامي مدارس عديدة في الاجتهاد ، ومذاهب فقهية متعددة أيضاً، بعضها كان يعتمد على النص ولا يتجاوزه حرفيّاً، وبعضها يعتمد عليه ويحاول تأويله أوالتوسع فيه وفهم علله وخلفياته، وبعضها كان يعتمد على الظنون الأُخرى كالقياس والاستحسان والمصالح المرسلة وغيرها من قواعد الاستنباط بالرأي.

وقد توسعت دائرة الاجتهاد الى درجة خطيرة، خصوصاً المدرسة التي تعتمد على الرأي ، فظهرت آراء شاذة وبعيدة عن الإسلام والشريعة، حتى انتهى الأمر بالدولة الإسلامية في عصور متأخرة نسبياً باتخاذ قرار سد باب الاجتهاد، وحصر المذاهب الاسلاميّة التي تتبناها الدولة في المذاهب الإسلاميّة الأربعة المعروفة، مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك بن أنس ومذهب أحمد بن حنبل ومذهب محمد بن ادريس الشافعي، والى جانب ذلك توجد مذاهب أُخرى للمسلمين ممن يعتقدون بالإمامة كمذهب الزيديّة والاثني عشرية والإسماعيلية، وممّن لم يؤمن بالمذاهب الأربعة ممن لا

يؤمن بمشروعيّة هذا القرار كمذهب الأباضية والظاهرية. وقد كان لأئمة أهل البيت عليهم السلام موقف واضح تجاه هذا الموضوع الهام الذي يحفظ للمسلمين وحدتهم من ناحية، ويفتح هذا الهامش في التعدد من ناحية أُخرىٰ، وبالتالي فهو يتجنب هذه الأخطار العظيمة التي ترتّبت على فتح باب الاجتهاد بمصراعيه بدون حدود، أوعلى غلق هذا الباب، والسير بالفقه الإسلامي في طريق مسدود أو متخلف لا يكون قادراً فيه على مواكبة التطورات الإنسانية، ومعالجة المشكلات التي أوجدتها المدنية الجديدة المتطورة، والحركة العلمية النامية، وقد كان هذا المنهج والموقف يعتمد على أساس فتح باب الاجتهاد، ولكن ضمن الضوابط الشرعية التي يمكن استنباطها من القرآن الكريم، والتي لخصها أهل البيت عليهم السلام في النقاط التالية:

١ ـ الاعتماد في الاجتهاد واستنباط الحكم الشرعي على (العلم) المتمثل بالنص القرآني الشريف، والسنّة النبويّة الصحيحة الثابتة، وترك الاعتماد على الظنون أوالآراء أوالأذهان، حيث وردت مئات الروايات الشريفة عنهم عليهم السلام تؤكد على هذه المضامين، وبشكل متميز لا نجد له نظيراً بهذه السعة والشمول في المذاهب الإسلاميّة الأُخرىٰ. كما حثوا في نفس الوقت على حفظ القرآن وتدوين السنة وتداولها وضبطها ولتحرج في نقلها بشكل واضح ومتميز، كل ذلك في قبال بعض المذاهب التي اعتمدت بشكل واسع على الرأي لعدم ثبوت شيء مهم من السنّة لديها، كمذهب أبي حنيفة، ولذلك نجد أنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام خصّوا هذا المنهج الخطير في الاستنباط بقدر كبير من

النقد والمؤاخذة[١]، لأنه سوف ينتهي الى النهايات التي انتهى اليها بعد ذلك، الأمر الذي أدّى الى اتخاذ قرار سدّ باب الاجتهاد.

٢ ـ الدعوة لتمييز الحديث الصحيح من الفاسد من خلال العرض على القرآن الكريم، وعلى الثابت من السنّة النبويّة الشريفة، بحيث يكون النص الثابت وهو القرآن الكريم والثابت من السنّة النبوية هو الأساس الذي يرجع اليه الاستنباط في نهاية المطاف، فعن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«إنّ على كلّ حق حقيقة وعلى كل صوابٍ نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه»**[٢]. وعن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: **«كلّ شيء مردود الى الكتاب والسنّة، وكلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف»**[٣]. وعن أبي عبدالله عليه السلام أيضاً: **«ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف»**[٤].

٣ ـ دعوة المسلمين للاهتمام بوثاقة الراوي وحذقه في نقل الحديث أوالأخذ به، وضرورة الفحص والنقد للأحاديث من خلال نقلها ورجالها حيث كثر الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله لأسباب سياسيّة وشخصية وذاتية ومذهبية[٥] وفي نفس الوقت فتحوا أمام المسلمين باب الأخذ من مصاردهم

---

(١) «عن أبي جعفر عليه السلام قال: مَن أفتىٰ الناس برأيه فقد دان الله بما لا يعلم، ومن دان الله بما لا يعلم فقد ضادّ الله حيث أحل وحرّم فيما لا يعلم» (أصول الكافي ج٢، باب البدع والرأي ح١٧، ص٥٧) «وعن أبان بن تغلب عن أبي عبدالله عليه السلام قال: إنّ السنة لا تُقاس ، ألا ترىٰ أنّ امرأة تقضي صومهما ولا تقضي صلاتها، يا أبان؛ إنّ السنّة إذا قيست مُحق الدين». (المصدر السابق ح١٥).

(٢) أُصول الكافي ج١ باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب ص٦٩، ح١.

(٣) المصدر السابق ، ح٣.

(٤) المصدر السابق، ح: ٤.

(٥) قال الإمام الصادق عليه السلام في جواب سؤال عمر بن حنظلة عن اختلاف القضاة في الحكم: «الحكم ما حكم ←

النقية و الثرية، والتي تعتبر في أعلى دجات الوثاقة والصحة والاعتماد، لأنّ حديث أحدهم هو حديث أبيه، وحديث أبيه حديث جدّه، حتى ينتهي الأمر الى رسول الله صلى الله عليه وآله[1] وفي اطار هذه الضوابط الرئيسيّة الثلاث فتحوا باب الاجتهاد والنظر ، وعلّموا المسلمين وأصحابهم كيفية الاستنباط الصحيح للحكم الشرعي، لا في لافهم من القرآن الكريم، أوالتنبيه على وجود المحكم والمتشابه والمطلق والمقيّد والعام والخاص في القرآن فحسب، بل في الحديث نفسه أيضاً، وهذا ما يسميه الأُصوليون بابحاث الجمع العرفي، كما أنهم شرحوا وأوضحوا وجود القواعد العامة التيوضعها الشارع المقدس للرجوع اليها عند الشك في الحكم أوفي الموضوع، وعدم وجود ما يعيّن هذا الحكم والموضوع ،كقاعدة الاستصحاب والبراءة الحل والطهارة والفراغ والتجاوز والاحتياط وغيرها من القواعد الفقهية أوالأصولية.

ولاشك أنّ فتح باب الاجتهاد يعني بطبيعة الحال (التعدّدية) إذ قد يختلف المجتهدون في الوصول الى النتائج من خلال التعامل مع هذه

← به أعدلهما وأفقههما وأصدقهما في الحديث وأورعهما، ولا يلتفت الى ما يحكم به الآخر». (الوسائل ج١٨، باب ٩ من أبواب صفات القاضي، ج:١، ص: ٧٥).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله في معرض بيان كثرة الكذب عليه صلى الله عليه وآله: «أيها الناس قد كثرت عليّ الكذّابة فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوّ مقعده من النار». (اصول الكافي، ج:١، ص: ٦٢ ، ح:١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ المغيرة بن سعيد دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدّث بها أبي فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربّنا وسنّة نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله». (رجال الكشي ص١٩٥).

(١) عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدي حديث الحسين، وحديث الحسين، حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أميرالمؤمنين، وحديث أميرالمؤمنين حديث رسول الله صلى الله عليه وآله، وحديث رسول الله صلى الله عليه وآله قول الله عزّ وجل». (بحار الأنوار، ج: ٢، ص١٧٨).

الضوابط، كما أنّ فتح باب الاجتهاد يهيء الأرضية للتطور الفقهي، بمعنى القدرة على مواجهة الحوادث المستجدة، والمشكلات الصعبة، والتحديات الجديدة، ويجسد حقيقة أن حلال محمد حلال الى يوم القيامة وحرامه حرام الى يوم القيامة، وان الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة، وان في كل حادثة حكماً شرعياً وان الشريعة شاملة وعامة كما نصّ على ذلك القرآن الكريم[١]: **﴿ويوم نبعثُ في كلّ أُمةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدىً ورحمةً وبشرىٰ للمسلمين﴾**[٢]، **﴿وكلّ شيءٍ فصلناه تفصيلا﴾**[٣] و**﴿ما فرّطنا في الكتاب من شيء﴾**[٤].

وفي نفس الوقت يمكن أن نعرف أن وضع الضوابط والأُسس لعملية الاجتهاد يجنبها أخطار الانزلاق في مهاوي الرأي والظنون والميول والنزعات، بحيث تتحول الشريعة الى حالة من الفوضى التشريعية والتناقض في الآراء والاتجاهات، والسقوط في الانحراف والضياع والضلال. ويمكن ان نجد معالم هذا التوجه في فتح باب الاجتهاد واضحاً في نقطتين أُخريتين بالاضافة الى النقاط السابقة:

١ ـ إرجاع أئمة أهل البيت عليهم السلام لأتباعهم في القضايا والمسائل الشرعية العملية، وكذلك في فصل الخصومات والنزاعات الى كبار أصحابهم ومعتمديهم، وفي نفس الوقت تعليم هؤلاء العلماء من أصحابهم كيفية الاستنباط، وحثهم على التصدي للفتيا وفصل الخصومات والنزاعات.

---

(١) أشرنا الى الأهداف من حركة الاجتهاد في كتابنا (دور الأئمة في بناء الكتلة الصالحة).

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) الأنعام: ٣٧.

(٤) الاسراء: ١٢.

ومن الواضح أنّ هذه العملية تحتاج الى اجتهاد واستنباط حتى يمكن أن تنجز بشكل كامل، خصوصاً في القضاء، ولا يمكن الاكتفاء بمجرد ماكان يسمعه هؤلاء الأصحاب من روايات في مختلف الوقائع(١).

ويوجد في بعض النصوص ما يشير الى إعمال أصحاب الأئمة عليهم السلام لآرائهم واجتهاداتهم في أخبار الأئمة أنفسهم من خلال المقارنة بينها بعضها مع البعض الآخر، كما يوجد في بعض النصوص ما يشير الى الاختلاف فيما يذكره أصحاب الأئمة عليهم السلام عنهم، حيث يمكن أن يكون أحد وجوه هذا الاختلاف هو الاختلاف في الاستنباط، كما أنّ أحد وجوهه المعروفة هو الاختلاف الناشئ بسبب التقية.

٢ ـ دعوة أئمة أهل البيت عليهم السلام لأصحابهم، أوإقرارهم على التصدي لبيان الفتاوى والأحكام الشرعية على طبق المذاهب الإسلاميّة المختلفة، الأمر الذي كان يومئ الى أنّ هذا الاتراف بهذا القدر من الاختلاف يمثل جانباً من جوانب التعايش بين المسلمين والانسجام في حياتهم وتيسيرها لهم(٢).

---

(١) قال محمد بن عيسى قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: جعلت فداك لا أكاد أصل اليك لأسئلك عن كلّ ما أحتاج إليه من معالم ديني، أفيونس بن عبدالرحمن ثقة آخذ عنه ما احتاج إليه من معالم ديني؟ فقال عليه السلام: نعم». (بحار الانوار: ج٢ ص٢٥١ باب: ٢٩، ح٦٧) «وعن علي بن المسيّب قال: قلت للرضا عليه السلام شقتي بعيدة ولست أصل إليك في كلّ وقت، فممن آخذ معالم ديني؟ قال عليه السلام: من زكريا بن آدم القمي المأمون على الدين والدنيا». (بحار الأنوار ج٢ ص٢٥١ باب: ٢٩ ح٦٨. «وعن شعيب العرقوفي قال قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ربّما احتجنا أن نسأل عن الشيء فمن نسأل؟ قال عليه السلام: عليك بالأسدي ـ يعني أبابصير ـ». (نفس المصدر الحديث ٦١ ص٢٤٩).

(٢) عن معاذ بن مسلم قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: إني أجلس في المجلس فيأتيني الرجل، فاذا عرفته أنّه يخالفكم أخبرته بقول غيركم، وان كان ممن يقول بقولكم أخبره بقولكم، فان كان ممن لا أدري أخبرته

←

الثالث: القبول بالتعددية السياسيّة

يحضى موضوع التعددية السياسية في المجتمع الإنساني بأهمية خاصة خصوصاً في هذا العصر، ويكاد أن يكون من المبادئ الإنسانية التي تقرها جميع المجتمعات الإنسانية في عصرنا الحاضر، وتضمنتها وثيقة حقوق الإنسان التي أقرتها هيئات الأُمم المتحدة، كما أنه من الموضوعات ذات الحساسيّة العالية في المجتمعات الإنسانية عبر التاريخ، وتختلف بينها في التعامل معه بشكل واضح وحاد أحياناً.

وفي التاريخ الإسلامي كانت هذه القضية من أهم القضايا التي عرفها هذا التاريخ منذ بداياته، وكانت من القضايا ذات التأثير الحاد والقوي على مجرىٰ الأحداث، ويكاد أن يتسم التاريخ الإسلامي مع الأسف بحرمان المسلمين من هذه التعددية في مختلف عصوره إذا استثنينا بعض الفترات القصيرة جداً في هذا التاريخ، حتى تولّد تصور في فهم النظرية الإسلامية في الحكم والمجتمع يفترض أنّ الحكم في الإسلام يمنع التعددية بالرغم من أنّ الرأي العام بين المسلمين هو قيام الحكم على أساس الشورىٰ انطلاقاً من موقف الصحابة العام في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله .

ولاشك أننا عندما نتحدث عن التعددية لا نريد منها التعددية في مقابل القبول بأصل النظام الإسلامي، أوما يشكل النقيض له، فانّ مثل هذه التعددية

← بقولكم وقول غيركم فيختار لنفسه، فقال عليه السلام : «رحمك الله هكذا فاصنع». (بحار الأنوار ج ٢، كتاب العلم، باب: ٢٩، ح٢٦، ص: ٢٣٧).

لا يعترف بها أي مجتمع إنساني في العصر الحاضر، وحتى الأنظمة المتوغلة في (الديمقراطية) تأبى لنفسها الاعتراف بالأحزاب والتنظيمات التي تعادي الديمقراطية، وتعمل للقضاء عليها، وتحرمها من الاعتراف الرسمي بها، وانّما يُراد من التعددية التعددية السياسية في ضمن النظام الذي قبلته الأُمّة والتزمت به وأقرته لنفسها، وعندما نتحدث عنها في ضمن النظام الإسلامي نريد بها التعددية في إطار هذا النظام نفسه.

وعلى أساس هذا الفهم نجد أنّ نظرية أهل البيتعليهم السلام في الوحدة الإسلامية في المجتمع الإسلامي،كانت تتميز بالتعددية السياسية، فضلاً عن التعددية الفكريّة والثقافية، الأمر الذي يلفت النظر الى أهمية هذا التصور، حيث أن المعروف عن مذهب أهل البيتعليهم السلام انه يقول بالإمامة (المنصوصة)، وفي عصر الغيبة بولاية الفقيه الجامع للشرائط.

ويمكن أن نعرف هذا البعد في نظرية أهل البيتعليهم السلام بشكل واضح في مواقف الإمام عليه السلام في زمن خلافته، وموقفه من خلافة الخلفاء السابقين عليه، حيث كانت الفرصة مؤاتية لأهل البيتعليهم السلام أن يعبّروا عن نظريتهم في هذه التعدديّة.

وبعد هذا الزمن نجد أهل البيتعليهم السلام يتعرضون للمطاردة والاضطهاد والتشريد، الأمر الذي لم يكن يسمح لهم أن يعبّروا عن هذه التعددية إلّا بالمطالبة بها، أوالسماح لهم بممارسة عملهم الثقافي والسياسي في المجتمع الإسلامي، ويأخذوا على الحاكمين طغيانهم وتفردهم بالحكم، وعدم السماح بسماع الرأي الآخر.

ونجد في حياة الإمام علي عليه السلام ثلاثة مواقف يمكن أن ترسم الصورة الواضحة لهذه النظرية التعدية السياسيّة.

الموقف الأوّل: هو موقف الإمام علي عليه السلام وأصحابه في زمن الخلفاء الثلاثة السابقين على زمان خلافته، حيث كان هذا الموقف يتمثل في بعدين رئيسين:

أ ـ المساهمة الفعّالة والمشاركة في تحمل أعباء ومسؤوليات الحكم، بالرغم من وجود الخلاف السياسي الذي أعلن الإمام علي عليه السلام وأصحابه موقفهم تجاهه يوم السقيفة وما بعدها على ما يحدثنا التاريخ ويحدثنا الإمام عليه السلام نفسه في مواضع متعددة من نهج البلاغة، حيث كان يعتقد بعدم صحة الاجراءات التي اتخذت في سقيفة بني ساعدة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله، وامتنع عن البيعة في الأيام الأولىٰ، كما امتنعت عن ذلك زوجته الزهراء عليها السلام ومجموعة من الصحابة أمثال سلمان الفارسي والزبير بن العوام والعباس بن عبدالمطلب والمقداد بن الأسود وأبوذر الغفاري وعمّار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وغيرهم[1].

ومع ذلك نجد الإمام علي عليه السلام يحاول أن يتحمل المسؤولية الشرعية

---

(١) قال علي عليه السلام: «فوالله مازلت مدفوعاً عن حقي مستأثراً عليّ منذ قبض الله نبيّه صلى الله عليه وآله حتى يوم الناس هذا». (نهج البلاغة: الكلام: ٦). وقال عليه السلام لمّا انتهت إليه أنباء السقيفة:«ما قالت الأنصار؟ قالوا: قالت منا أمير ومنكم أمير، قال عليه السلام: فهلّا احتججتم عليهم بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وصّى بأن يُحسن الى محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم؟ قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ قال عليه السلام: لوكانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم، ثم قال عليه السلام: فماذا قالت قريش؟ قالوا: احتجت بأنها شجرة الرسول صلى الله عليه وآله فقال عليه السلام: احتجّوا بالشجرة وأضاعوا الثمرة». (نهج البلاغة: الكلام: ٦٧).

والدينية في المساهمة والمشاركة، سواء على المستوى العلمي والثقافي، أوعلى مستوى الحكم والقضاء، أومستوى العمل الجهادي والسياسي، حتى أنّ الخليفة الثاني قال وفي مناسبات عديدة (لا أبقاني الله لمعضله ليس لها أبوالحسن علي).

وكذلك ساهم سلمان الفارسي في حروب تحرير العراق، وتولّىٰ بعد ذلك الولاية للخليفة الثاني في العراق عندماكان مركزها المدائن، وكذلك عمّار بن ياسر وغيرهما من مناصب أُخرى.

ب ـ الالتزام بممارسة العمل السياسي الاصلاحي في المجتع الإسلامي، وانتقاد ما يقوم به الحكم الإسلامي من أعمال لا يراها منسجمة مع الشرعية أوالمصلحة الإسلامية العليا، ولعل موقف الإمام علي عليه السلام تجاه قضية البيعة والخلافة بعد وفاة الخليفة الثاني عمر يدلل على هذا الاتجاه، حيث رشّحه للخلافة ضمن ستة أشخاص يتشاورون في انتخاب واحد منهم للخلافة، فانّ عبدالرحمن بن عوف طلب في البداية من الإمام علي عليه السلام أن يبايعه للخلافة ولكن شرط عليه الالتزام بسيرة الشيخين، مضافاً الى الالتزام بالكتاب والسنّة، حيث رفض الإمام علي عليه السلام شرط الالتزام بسيرة الشيخين واصرّ على العمل باجتهاده ضمن اطار الكتاب الكريم والسنّة النبويّة.

كما انّ الإمام عليّاً لم يزل يقدّم النصح، وينتقد المنهج السياسي والعملي الذي كان يسير عليه الخليفة الثالث، وكان رأيه في هذا المجال أنّه يسلّم ما سلمت أُمور المسلمين بنظره، ولم يكن هناك جور إلّا عليه خاصة[1]، وإلّا

(١) نهج البلاغة: خطبة ٧٤.

فقد كان يرفع صوته بالانتقاد والاصلاح عندما تتعرض أُمور المسلمين الى الجور والظلم.

كما أنّ أصحابه كانوا يلتزمون بهذا المنهج، فقد انتقد أبو ذر الغفاري بشدة المنهج الاقتصادي للخليفة الثالث في توزيع الأموال، وتشكيل الاقطاعيات الكبيرة والاسراف في الانفاق، والبذخ ومظاهر الكبرياء والعظمة ، وعدم العدالة في التوزيع، الأمر الذي أدّى الى تعرضه للنفي والابعاد الى بلاد الشام، ثمّ بعد ذلك الى الربذة من الحجاز، لإصراره على الاستمرار في هذا النهج، وعدم تحمل معاوية لآثار نشاطه السياسي في المنطقة.

كما أنّ عمار بن ياسر انتقد بشدة منهج الخليفة الثالث في تسليط بعض رجال السوء من أقربائه على أُمور الحكم، وعدم العدل في الرعيّة ، الأمر الذي أدّىٰ به الى أن يتعرض الى الضرب والوطء بالأقدام، حتى أُصيب بالفتق، وكانت له مساهمة كبيرة في تأجيج مشاعر النقمة والرفض لهذا المنهج لدى المسلمين، خصوصاً في الكوفة ومصر.

الموقف الثاني: موقفه من حركة زوجة النبي (عائشة) والصحابيين طلحة والزبير ، حيث كانت أُم المؤمنين عائشة ممن أعلن النقمة وعدم القبول بمنهج الخليفة الثالث، وأخذت بتحريض الناس عليه حتى روي عنها أنها قالت في بعض حالات غضبها (اقتلوا نعثلاً فقد كفر) وخرجت من المدينة الى مكة تعبيراً عن عدم ارتياحها ، وأظهرت السرور بمقتل الخليفة الثالث لهذا السبب بقولها (وألقت عصاها واستقرّ بها النوىٰ) ، وكان يشاركها في هذا الأمر جماعة من الصحابة الناقمين، وفي مقدمتهم طلحة والزبير، حتى

انهما اشتركا بشكل أوبآخر في عملية الهجوم على مسكن عثمان أوالتحريض على ذلك[١].

وقد بادر كل من طلحة والزبير الى مبايعة الإمام علي عليه السلام بعد مقتل عثمان في جملة جمهور المسلمين الذين انهالوا على الإمام يبايعونه بصورة لم يعرف لها نظير في التاريخ الإسلامي.

ولكنهما بعد فترة من الزمن بدءا يتغيران سياسياً، حيث كانا ينتظران أن يقوم الإمام علي عليه السلام بتوليتهما بعض المناصب[٢]، باعتبارهما من الثائرين على عثمان والمؤيدين لخلافته بعد مقتل عثمان، ولموقعهما المتميز في الأوضاع السياسية ، ولأنهما من المرشحين الستة في الشورى بعد مقتل الخليفه الثاني عمر، ولم يستجب الإمام علي عليه السلام لهذه الرغبة، بل بدا منه أنّه سوف يتعامل بطريقة أُخرى تختلف بشكل حاد عن المنهج الذي اتبعه الخليفة الثالث في قضية الأموال والمناصب والنفوذ.

وكانت عائشة قبلهما قد اتخذت موقفاً سلبياً تجاه خلافة الإمام علي عليه السلام عندما سمعت ببيعة الناس له، وهي في طريقها من مكة الى المدينة، حيث عبّرت عن عدم رضاها بقولها (قتل عثمان مظلوماً) ، فقفلت راجعة الى مكّة تتدبر أمرها.

وبعد ذلك حصلت اتصالات بين عائشة وطلحة والزبير الذي كان في نفس الوقت زوج أُختها، ومن أجل تكوين جبهة معارضة لخلافة الإمام علي عليه السلام، الأمر الذي أدّى الى اتخاذ قرار من قبل الصحابيين بالسفر الى مكة

---

(١) راجع النص : كتاب رقم (١) من نهج البلاغة.

(٢) راجع نهج البلاغة: الكلام : ٢٠٥.

للالتحاق بعائشة هناك فجاءا يستأذنان الإمام علياً(عليه السلام) بالسفر الى مكة من أجل العمرة، ويخفيان عليه حقيقة الموقف السياسي.

وكان الإمام علي(عليه السلام) قد عرف الحقيقة والاتصالات والنوايا، ولكن مع ذلك أذنَ لهما بالسفر وقال لهما: (ما تريدان العمرة ولكن تريدان الغدرة)، ونصحهمابتقوى الله والتريّث، والمهم في هذا الموقف هو أنّ الإمام علياً(عليه السلام) لم يتخذ أي إجراء ضد هذه الحركة السياسيّة المعارضة ذات النوايا الخطيرة، والتي تطورت بعد ذلك، إلّا بعد أن تطور موقف الحركة الى العدوان المسلح والتمرد والعصيان على الدولة الإسلاميّة.

ومن خلال النصوص الكثيرة يبدوأنّ الإمام علياً(عليه السلام) حاول أن يتحدّث اليهم حديثاً سياسياً مقنعاً من خلال المباحثات والمراسلات أوالاتصالات الشخصية، وترك لهم حريّة الحركة والرأي، حتى تحوّلت الى حركة تآمرية ضده، وضد الحكم الإسلامي.

الموقف الثالث: موقفه من الخوارج الذين انشقوا على الإمام علي(عليه السلام) لخط سياسي بعد أن كانوا يوالونه في الموقف العام، وذلك بعد حادثة الحكمين في محاولة فصل الخصام في صفّين، حيث كان موقف الإمام(عليه السلام) تجاه أصل فكرة التحكيم هو الرفض لها، لأنه كان يعرف ـ كما صرّح بذلك ـ أنها مجرّد خدعة لجأ إليها معاوية وأصحابه عندما أدركوا أن كفة الحرب بدأت تميل لصالح الإمام علي(عليه السلام) ولكنّه قبل بالفكرة تحت ضغط جمهور أفراد جيشه، لأنّ بعضهم كان قد انخدع بهذه الفكرة، وكان البعض الآخر منهم قد تعب من القتال ونتائجه، وبعضهم كان متآمراً ومنافقاً،ولما استخدمت أساليب التضليل،

وتبيّنت النتائج السيئة إنشق عدد من أفراد الجش على الإمام عليﷺ تحت شعار: (لا حكم إلّا لله) رافضين حكم (الحكمين) ومتمردين على الإمامﷺ، لأنه وافق على التحكيم ولم يصرّ على الرفض[1]. ونجد من خلال الموقف والمناقشات السياسية التي أجراها الإمام عليﷺ معهم أفضل دليل على هذه الحقيقة.

ففي نهج البلاغة الكلام (١٢٢) الذي قاله للخوارج وقد خرج الى معسكرهم وهم مقيمون على إنكار الحكومة، فقالﷺ: **أكُلكُم شهد معنا صفّين؟**، فقالوا: منّا من شهد ومنّا مَن لم يشهد، قالﷺ: **فامتازوا صفين فليكن مَن شهد صفين فرقة ومَن لم يشهدها فرقة، حتى اكلّم كلاً منكم بكلامه**، ونادى بالناس فقال: **امسكوا عن الكلام وأنصتوا لقولي، وأقبلوا بأفئدتكم إليّ، فمن نشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها...**» وأيضاً في الكلام ١٢٧:

«**وإن أبيتم إلّا أن تزعموا أني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أُمّة محمدﷺ بضلالي، وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي!، سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون مَن أذنب بمن لم يذنب...**». حيث نجد من خلال هذه النصوص عند مراجعتها كيف يتّبع الإمام عليﷺ أُسلوب المناقشة العلمية والسياسية الهادئة، وكذلك نلاحظ عدم اتخاذ الإمام عليﷺ لأي إجراء قضائي أو تأديبي، أو أي نوع من المطاردة والمؤاخذة لأُولئك الذين كانوا ينتقدونه علناً، ويظهرون الارتباط السياسي بهذه المجموعات المعارضة سياسياً، كما نجد ذلك في النصوص التالية:

---

(١) راجع نهج البلاغة: الكلام: ٤٠ و٢٠٨.

«فقد روىٰ الرضي في نهج البلاغة أنّ الإمام علياً عليه السلام سمع البرج بن مسهر الطائي يقول له (لا حكم إلّا لله) وكان من الخوارج فقال له: **اسكت قبحك الله يا أثرم، فوالله لقد ظهر الحق فكنت فيه ضيئلاً شخصك خفياً صوتك حتى اذا نعر الباطل بخمت بخوم قرن الماعز**»[1] «وفي نصٍ آخر أنّ الإمام علياً عليه السلام كان جالساً في أصحابه فمرّت بهم امرأة جميلة فرمقها القوم بأبصارهم فقال عليه السلام: **إنّ هذه الفحول طوامح وانّ ذلك سبب هبابها، فاذا نظر أحدكم الى امرأة تعجبه فليلامس أهله فانّما هي امرأة كامرأته**، فقال رجل من الخوارج: قاتله الله كافراً ما أفقهه، فوثب القوم ليقتلوه، فقال عليه السلام: رويداً إنّما هو سب بسب أوعفو عن ذنب»[2] وهناك نماذج أُخرىٰ تشير الى هذا الوضع السياسي الذي كان يلتزم به الإمام علي عليه السلام .

ومن خلال نهج البلاغة وما روي من كلام وحديث عن الإمام علي عليه السلام نلاحظ ظاهرة واضحة اتسمت بها فترة خلافته، وهي ظاهرة الأفكار والتحركات السياسية المتعددة، والاتجاهات والميول الحركية المختلفة، وكان الإمام علي عليه السلام يتعامل مع هذه الظاهرة من خلال طرح الآراء والتصورات ومناقشتها ونقدها بقوة ـ كما نجده في المنهج الذي اتبعه القرآن الكريم في معالجة الأفكار والتحركات السياسية التي كان يعيشها المجتمع الإسلامي في الصدر الأوّل ـ ترك الفرصة لبعض الشخصيات ، بل وحتى لبعض التكتلات السياسية أن تتحرك دون أن يمارس تجاهها القمع والمطاردة مع أن النبي صلى الله عليه وآله كان قد شخص هؤلاء العناصر وتلك الجماعات.

---

(١) نهج البلاغة: الكلام: ١٨٤.

(٢) نهج البلاغة: الحكم: ٤١٢.

﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم﴾[1] .

هذا كله في الجماعات التي لا تؤمن بالنظام وتتمرد عليه كله، فكيف بالجماعات التي تعترف بالنظام وتلتزم بقوانينه ومقرراته، ولكنها تسعى للاقناع بأفكارها وآراءها بالطرق السليمة دون تهديد لأمن النظام السياسي أودعوة للتمرد عليه، فانّ التعامل السياسي الذي يقرّ ويسكت عن هذا اللون من العمل السياسي يصبح أكثر وضوحاً، ويحضىٰ بالأولوية في القبول.

ثانياً: الحدود الموضوعية لحركة هذا الهامش

لقد أشرنا في بداية هذا الفصل الى أنّ نظرية أهل البيت عليهم السلام في الوحدة الإسلامية في الوقت الذي تؤمن فيه بهامش التعدد والاختلاف ترىٰ أنّ هذا الاختلاف له حدود وضوابط لابدّ أن يقف عندها ، لئلا يبقى مفتوحاً، وينتهي الى الأخطار العظيمة التي قد تلحق بالجمع الإسلامي بسبب ذلك، وهي أخطار الفرقة والنزاع والتشتت.

وقد أشرنا الى بعض هذه الحدود في طيّات الحديث عن هامش الاختلاف والتعدد ، ولكن يحسن بنا أن نضعها في نقاط واضحة، ليتبين بذلك الإطار الواضح لهذا الموضوع من ناحية، وضمانات الوحدة في المجتمع الإسلامي من ناحية أُخرى.

---

(١) محمد: ٣٠.

ضوابط التعدد الفكري والعقائدي

أمّا فيما يتعلق بالتعدد على المستوى الفكري والعقائدي، فيمكن أن نذكر نقطتين أساسيتين:

الأُولى: أن يقوم الحوار والاختلاف على أساس الضوابط العلمية والمنطقية، والحوار العلمي الهادئ، والاحترام المتبادل للأفكار.

الثانية: أن يكون هذا الاختلاف محدوداً بحدّ عدم تجاوز الأُصول العقائدية الضرورية في العقيدة الإسلاميّة، وهي التوحيد والرسالة واليوم الآخر، وأن لا يمس الضروريات التي يؤدي انكارها الى إنكار أحد هذه الأُصول الثلاثة الأساسية. ويمكن أن نفهم هذا الحد من النصوص التي تحرّم دم المسلم وماله وعرضه وتعرّف المسلم بأنه المؤمن بالله والرسول واليوم الآخر، وكذلك النصوص التي تدعو الى التزام منهج (العلم) و(اليقين) في معرفة الحقائق، والاعتماد على القرآن الكريم في فهم الأفكار والعقائد باعتباره وحياً الهياً وكذلك الاعتماد على السنة النبوية الثابتة والرجوع اليهما في موارد الظن والشك، وكذلك النصوص التي تدل على الأخذ عن أهل البيت عليهم السلام باعتبارهم العارفين بالقرآن والسنة والعلماء بهما.

ضوابط التعددية في اطار الفقه والاجتهاد

وأمّا على مستوى الفقه والاجتهاد فنحن نلاحظ في نظرية أهل البيت عليهم السلام النقاط التالية:

الأولى : أن يستند الاستنباط في النهاية الى دليل علمي ويقيني، يشير الى قبول الشارع المقدّس لهذا المنهج في الاستنباط ، مع رفض الظنون والآراء التي تستند على المرجحات والاستحسانات.

الثانية: أن يكون موافقاً للكتاب الكريم والسنّة النبوية الثابتة، وأن لا يكون مخالفاً لهما، فلا يصح بأي حال الاجتهاد في مقابل النص الثابت سواء كان هذا النص قرآنياً، أوسنة نبوية.

الثالثة: أن يكون الشخص الممارس لعملية الاستنباط قد وصل الى درجة علمية تؤهله لمثل هذا العمل العلمي المعقّد، وقد تمكّن من العلوم الأساسيّة التي تمثل القاعدة لهذه العملية، ويتصف بالورع والتقوى والعدالة.

ويمكن أن نجد ما يدل على هذه الحدود في النصوص الكثيرة التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام ، والتي تحدثت عن ضوابط عملية الاجتهاد والاستنباط، والوصول الى الحكم الشرعي[1] .

حدود التعددية السياسية

إنّ العمل السياسي لابد أن يمارس في ضمن الاطار الشرعي، والخروج عن هذا الاطار غير جائز، ولكن مع ذلك عرفنا بأنّ نظرية أهل البيت عليهم السلام تسمح بالتعددية السياسيّة مع قطع النظر عن حكمها الشرعي، والمؤاخذة الإلهية عليها، فما هو هذا القدر الذي تسمح به، هنا يمكن أن نذكر بعض الحدود الأساسية والمهمة لهذه التعددية.

---

(١) يمكن مراجعة أبواب صفات القاضي من الوسائل ج١٨.

الأوّل: أن تكون التعددية ضمن الاعتراف بالنظام الإسلامي نفسه فلا يمكن أن يسمح الإسلام ـ بل ولا حتىٰ الأنظمة الديمقراطية كما ذكرنا ـ بالعمل السياسي الذي يسعى للإطاحة بالنظام نفسه وتغييره.

الثاني: أن يكون التحرك سياسياً ضمن الالتزام بالقوانين الاجتماعية العامة التي وضعها النظام الإسلامي لتنظيم حياة الناس، كالواجبات المالية والدفاعية وغيرها.

الثالث: أن لا يكون العمل السياسي موجباً للإخلال بالأمن والنظام العام، كالأعمال المسلحة والاضطرابات التي تهدد أمن المجتمع، أووحدته وتماسكه.

وفي هذا المجال يمكن أن نستفيد من بعض النصوص التي وردت في نهج البلاغة، فقد تحدث الإمام عليه السلام في تحديد الموقف تجاه مسير أصحاب الجمل الى البصرة قائلاً: **«إنّ هؤلاء قد تمالؤوا على سخطة إمارتي، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، فانهم ان تمموا على فيالة هذا الرأي انقطع نظام المسلمين...»**[1].

«ما منهم رجل إلّا وقد أعطاني الطاعة وسمح بالبيعة طائعاً غير مكره، فقدموا على عاملي بها وخزّان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها فقتلوهم طائفة صبراً وطائفة غدراً، فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلّا رجلاً واحداً متعمدين لقتله بلا جرم جرّه لحلّ لي قتل ذلك الجيش كلّه إذا حضروه فلم ينكروا ولم يدفعوا عنه بلسان ولا يد، دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدّة التي دخلوا بها عليهم».

---

(١) نهج البلاغة: الكلام: ١٦٩.

نظريتان في مقابل نظرية أهل البيت عليهم السلام

ونجد في مقابل نظرية أهل البيت عليهم السلام في الوحدة في المجتمع الإسلامي نظريتين أُخريتين:

النظرية الأُولى: هي نظرية فرض الوحدة على المجتمع الإسلامي من خلال القوة، وهي نظرية يتبناها الطغاة في التاريخ الإسلامي، الذين حاولوا أن يحوّلوا الحكم في الإسلام الى حكم الأكاسرة والقياصرة، حيث أصبح الحكم في نظرهم يعتمد على آراء وميول ورغبات الحاكم، فهو ظل الله في الأرض، ورغباته وميولاته تمثل القوانين والأحكام والشرائع. ويمكن أن نشير بشكل مختصر الى معالم هذه النظرية في التاريخ الإسلامي من خلال النقاط التالية:

١ ـ التزام منهج القمع والمطاردة وخنق الأنفاس وفرض الآراء بالقوة والقهر.

٢ ـ تبرير العدوان والقتل وأعمال التشريد والمطاردة لكل المطالبين بالاصلاح والآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر، بأن هذه الأعمال توجب الاختلاف وشق عصا المسلمين، ومفارقة الجماعة، ولاشك بأنّ النبي صلى الله عليه وآله دعا الى التزام الجماعة، وحفظ المجتمع الإسلامي، ولكنّ المقصود من كل ذلك ـ كما هو واضح ـ التزام جماعة المسلمين وحفظ المجتمع الإسلامي نفسه، الذي يخضع للقوانين والضوابط الإسلامية، أما إذا تحوّلت الجماعة الى جماعة الحاكم، والمجتمع والقوانين والضوابط الى مجتمع وقوانين وضوابط

الأهواء والرغبات والميول، فالقضية لها مدلول آخر، كما نصّت على ذلك آيات القرآن الكريم الواضحة والروايات النبوية الثابتة.

٣ ـ منع الحركة السياسية والفكرية والمذهبية بجميع أشكالها وألوانها، والمؤاخذة عليها حتى بأبسط صورها.

النظرية الثانية: هي نظرية الصراعات المذهبية والعقائدية حيث شهد التاريخ الإسلامي في بعض الأدوار ـ وحتى في عصرنا الحاضر ـ بعض الاتجاهات التي ترىٰ أهميه التركيز الى حد النزاع والإقتتال في بعض الأحيان من أجل قضايا صغيرة وجزئية، تتحول الى محور للصراعات والاهتمامات العامة لدى المسلمين ، وتستحق المطاردة والملاحقة، كما نجد ذلك في زمن المأمون الذي تحوّل الصراع فيه حول بعض القضايا العقائدية الجزئية، مثل قضية خلق القرآن الى قضية مهمة تستحق ملاحقة أحد علماء المسلمين المهمين مثل أحمد بن حنبل، والذي تعرّض الى الجلد والسجن بسببها، وهكذا تحولت قضايا الخلافات الفكرية والعقائدية بين الأشاعرة والمعتزلة الى صراعات عنيفة يتم فيها التفتيش على العقائد والآراء، وتتبنى كل طائفة من المسلمين رأياً لتدخل في مواجهة مع الطائفة الأُخرىٰ، بحيث تحوّلت هذه القضايا الى هموم عامّة وقضايا كبيرة في الأُمّة. وهكذا الحال في بعض الخلافات المذهبية في بعض الأدوار، حيث جرت مذابح مدمرة لا رحمة فيها، لمجرد هذه الاختلافات ، والتاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه الأحداث.

ونجد في عصرنا الحاضر مَن يحاول أن يركّز دائماً على هذه القضايا

الصغيرة ليحولها الى مقامع من حديد، وسيوف مشهورة، ورماح مشرعة، وسهام مصوبة الى هذه الجماعة وتلك، ولا يسمح بالتعايش بين هذه الجماعات مادامت آراؤهم مختلفة في هذه الالتزامات الفكرية أوالفقهية أوالسلوكية.

فتطبع الآن الكتب وبأعداد مليونية من أجل التبشير بهذه الخلافات والتأكيد على هذه الفوارق والفواصل، ويتم تبادل الاتهامات بين هذه الجماعات والطوائف، وفي كثير من الأحيان تكون اتهامات ظالمة ومفتعلة، ولا يسمح للعقول والأذهان ، ولا للأساليب العلمية في التحقيق والدراسة للوصول الى الحقيقة فيها،كما لا يسمع فيها نداء الأُخوّة والتعاون والوحدة والتفاهم والحوار، من أجل الوصول الى القواسم المشتركة.

إنّ هذا المنهج يمثل نظرية في فهم الوحدة الإسلامية، تتخذ طابع الأهداف السياسيّة المغرضة والخبيثة أحياناً، وتتخذ طابع التعصب الأعمى، والاصرار على الخطأ والذنب أحياناً أُخرىٰ، وتتخذ طابع التصور النظري لطبيعة العلاقات بين المسلمين الذي ينطلق من الخوف على الفئة والجماعة من الذوبان، أوالضمور أوالتحول فيالفهم والمواقف في بعض الأحيان الأُخرى.

إنّ نظرية أهل البيت عليهم السلام تعتبر في الحقيقة تجسيداً واقعيّاً ومنطقياً للنظرية الإسلامية في الوحدة الاجتماعية، والتي تؤكد على أنّ يد الله مع الجماعة، وانّ الشاذ من الناس للشيطان،كما أنّ الشاذ من الشاة للذئب، وأنّ المسلمين يجب ان يتعايش بعضهم مع البعض الآخر لأن المسلم أخ المسلم لا

يخذله ولا يخونه وانّ المسلم كفؤ المسلم فلا بدّ له أن يحترمه، الى غير ذلك من النصوص الكثيرة التي أشرنا الى بعضها، وتزخر بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام .

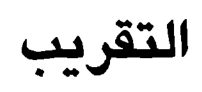
إنّ هذا الموقف النظري لمدرسة أهل البيت عليهم السلام يزداد أهمية إذا عرفنا أنهم كانوا يقولون كلّ ذلك في ظل الظروف الصعبة التي كان بقية المسلمين يتعاملون فيها معهم بالقسوة والمطاردة، ومحاولات الابادة والاحتواء، كما يمكن أن نعرف أهمية هذا الموقف أيضاً من خلال التطبيق العملي لأبناء هذه المدرسة العلماء الكرام. وحديث التطبيق حديث واسع وطويل، ولكن لابدّ أن نعرف أنّ هذه المدرسة تنازلت عن الكثير من القضايا الخاصة في سبيل حفظ وحدة المسلمين، والدفاع عن العقيدة الإسلامية والمجتمع الإسلامي. ولعل أوضح هذه المواقف هو الموقف الذي وقفه علماء أهل البيت عليهم السلام وبشكل اجماعي ومن مختلف الانتماءات القوميّة تجاه الغزو الأجنبي للبلاد الإسلامية، والذي انتهى بسقوط الخلافة العثمانية، حيث وقفوا يدافعون عن هذا الحكم الذي اضطهدهم وطاردهم وأبعدهم عن جميع المواقع الاجتماعية، وخرجوا الى الجهاد في سبيله، وخصوصاً في العراق، في الوقت الذي تخلّى فيه عامة علماء أهل السنّة في ذلك العصر عن هذا الحكم لما تعرّض له من فساد وانحراف.

وهكذا الموقع الرائع لعلماء أهل البيت عليهم السلام في هذا العصر تجاه القضية الفلسطينية بشكل خاص، بالرغم من انّ عامة أهل فلسطين هم من أهل السنة، ولكن تعاطفوا معهم ليس على المستوى السياسي والقضية الكبرى فحسب،

بل على المستوى الاجتماعي والفردي، وعلى مستوى التضحية والبذل والعطاء في الدماء والأموال والديار.

وكان لموقف الإمام الحكيم، والإمام كاشف الغطاء، وأخيراً الإمام الخميني رضوان الله عليه الذي ارتفع بالقضية الفلسطينية الى القضية الأُولى في مجمل عمله السياسي.. لقد كان لهذه المواقف الرائعة المعاني والتجسيد الرائع لهذه النظرية في الوحدة الإسلامية، ولهذا الفهم للأُخوة الإسلامية.

إن قضية الوحدة الإسلامية من القضايا التي تحتاج الى المزيد من الدراسة والاهتمام والتأمل، حتى يمكن أن نصل الى أهدافها النبيلة المقدّسة، كما نحتاج فيها إلى منهج وأساليب نتبعها ونتبينها في أبحاثنا، لنخرج بها من النظرية الى التطبيق، وهذا ما سنحاول معالجته ولو بشكل مختصر في البحث الآتي.



بين المذاهب والوحدة الإسلامية

التقريب بين المذاهب

تتخذ قضية التقريب بين المذاهب الإسلامية أهمية خاصة في الوقت الحاضر، ذلك لأنها ترتبط بقضية كبرى مهمة هي قضية الوحدة الإسلامية، حيث تشكل قضية التقريب العمود الفقري لقضية الوحدة الإسلامية.

وبشكل مختصر ومركز نحاول هنا أن نتحدث عن قضية التقريب في عدة نقاط ، تبلور بمجموعها الاطار العام لقضية التقريب في هدفه ومنهجه وأساليبه ونتائجه.

النقطة الأُولى: إنّ الهدف الأساسي للتقريب كما ذكرنا هو الوحدة الإسلامية، ويمكن أن نرى الى جانب ذلك بعض القضايا المهمة والأهداف الأُخرى، حيث يرتبط تطور الفقه الإسلامي من خلال هذا التقريب والتلاقح في الأفكار، هذا ما حصل في الأدوار الأُخرى من تأسيس الفقه الإسلامي، فإن الفقهاء من جميع المذاهب كانوا يتعايشون ويتدارسون النظريات الفقهية، وأساليب الاستنباط، الأمر الذي أثرىٰ الفقه وجعله قادراً على مواجهة التطورات الحياتية في تلك العصور، وفي هذا العصر نجد حاجة ماسة لذلك ـ كما أشرنا في البحث الأوّل حيث يواجه المسلمون التحديات الحضارية والمشكلات الاجتماعية التي لابدّ من استنباط حلولها والمواقف تجاهها من الشريعة الإسلامية.

وبالاضافة الى ذلك يمكن أن يقدم هذا التقريب مجموعة من الخيارات المذهبية الإسلامية للمشاكل المتعددة، بحيث يكون أمام الإنسان المسلم القدرة على الانتخاب بما يلائم ظروفه الحياتية، وأوضاعه الاجتماعية، حيث يفتح ذلك أمام المجتهدين الآفاق الواسعة والرحبة.

وفي موضوع الوحدة الإسلامية لابد أن نؤكد العمل التقريبي في جميع المجالات التي ذكرناها للوحدة الإسلاميّة في آخر البحث الأوّل من أهمية معالجة الخلافات المذهبية، لا على أساس توحيدها في مذهب واحد، بل بمعنى احترام آراء المذاهب الإسلامية الأُخرى. وكذلك قضية توحيد النظرة الكلية لدور الدين، وصيغة الحكم الإسلامي، والموقف تجاه أعداء الإسلام، والاهتمام المشترك بالقضايا الإسلاميّة في العالم الإسلامي، وغيرها من المجالات الأُخرى.

النقطةالثانية: في معالجة أسباب الاختلاف لاجتنابها، فإنّ تشخيص أسباب الاختلاف يمثّل الخطوة الأُولى والأساسية في العلاج، والشأن في ذلك هو شأن تشخيص المرض الذي يمثل الخطوة المهمة في العلاج، ويمكن إرجاع الأسباب الرئيسية للخلاف الى الأُمور التالية:

١ ـ الهوىٰ والتعصب المذموم والتخلف الأخلاقي في معالجة القضايا المختلفة المرتبطة بالحوادث التي تواجه المسلمين، وخصوصاً القضايا التاريخية أوالعقائدية أوالقضايا التاريخية أوا لعقائدية أوالقضايا ذات العلاقة بالخلافات المذهبية.

٢ ـ النشاط المعادي للإسلام الذي يسعى للتخريب بين المسلمين، وتمزيق صفوفهم من خلال إثارة الفتن، والتركيز على نقاط الضعف والإثارة، وشراء ضمائر ذوي القلوب المريضة، لتسخيرهم لأداء هذه المهمة.

٣ ـ الجهل بأوضاع المسلمين ومعتقداتهم، والاعتماد في معرفة ذلك على الأوهام والظنون غير المشروعة أوالاشاعات والتهم أوالروايات والأقوال الشاذة في هذا المذهب أوذلك.

٤ ـ الاختلاف في ثبوت النص الشرعي المروي عن النبي ﷺ أو الأئمة، أوالعلماء الذين ينتسبون لهذا المذهب أوذاك ذات الطابع الموضوعي والعلمي، وذلك بسبب الفاصل الزمني الكبير بين زمن صدور النص وأيامنا هذه، حيث وقع في النصوص الاختلاف والتزوير والخطأ والاشتباه في النقل.

٥ ـ الاختلاف في فهم النص ومقارنته بالنصوص الأُخرىٰ، حيث أنّ القرآن الكريم الذي ثبت نصه بالتواتر فيه محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وعام وخاص... وأحاطت به القرائن الحالية التي تسمّى بأسباب النزول، والتي تلقي ضوءً على فهمه وتفسيره، وهكذا الحال أيضاً في النصوص المرويّة في السنة النبوية.

٦ ـ الاختلاف في قيمة النصوص الصادرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وأنها هل ترقى الى قيمة ما صدر عن رسول الله ﷺ إمّا لأنهم معصومون أورواة عن رسول الله ﷺ بشكل صادق ومتقن، وكذلك النصوص المروية عن الصحابة، وهل أنها تنتسب الى رسول الله أو الى أشخاصهم، وهل أنّ جميع الصحابة عدول، أو أنهم يخضعون للنقد والتمحيص، شأنهم في ذلك شأن بقية الرواة؟

ولاشك أنّ معالجة هذه الأسباب مختلفه في طرقها ووسائلها، ولابدّ من دراسة كلّ واحد منها، ووضع الأساليب المناسبة لهذه المعالجة.

فالتربية الأخلاقية العالية، والتقوىٰ، والتعصب لله تعالىٰ، والحرص على المصالح الإسلامية ، وتشخيص الأعداء ، والحذر من مؤامراتهم وأعمالهم ونشاطهم ،والكشف عن ذوي الضمائر الميتة والقلوب المريضة وسائل مهمة في معالجة السبب الأوّل والثاني.

وكذلك البحث عن معتقدات ومتبنيات المذاهب الإسلامية من مصادرها النقية، والاعتماد في ذلك على أقوال أئمة هذه المذاهب المعروفة، ومن منطلق الأُخوّة الإسلامية، وحسن الظن، وروح التفاهم والمحبة،كلّ ذلك له تأثير كبير في معالجة السبب الثالث.

ووضع القواعد والأُصول والضوابط المستنبطة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة في إثبات النص، واتباع منهج الحوار العلمي الموضوعي، والمناقشة الهادئة، والدليل المنطقي والشرعي، يمثل أفضل الطرق لمعالجة السبب الرابع والخامس.

والفحص في أدلة الاتجاهين، واحترام الآراء العلمية في ذلك، يمثّل أفضل طريقة للمعالجة والتقريب بينهما.

النقطة الثالثة: في القضايا الأساسية التي لابدّ من الالتزام بها بين المسلمين لايجاد القاعدة والأرضية التي يقوم عليها بناء التقريب بين المذاهب الإسلامية، فانّ التقريب يحتاج الى أجواء روحية وسياسية واجتماعية

واخلاقية وثقافية مناسبة يعيش وينموا فيها هذا الهدف الحيوي الهام.

ومن الملاحظ أن القرآن الكريم اهتمّ بايجاد هذه الأرضية عندما عالج قضية التقريب بين أصحاب الأديان السماوية ودعوتهم لمعرفة الحق، حيث أكدّ على القضايا الأساسية، مثل التوحيد، والوحي، والنبوة، والعدل، والأصل الواحد للرسالات، والتمجيد للأنبياء، الماضين، وذكر قصصهم وأعمالهم والحديث عن الأخلاق والمواقف المعنوية والاجتماعية، والموضوعات الثقافية المشتركة ، والالتزام بالمنهج العلمي في البحث والرجوع الى العقل بعيداً عن التعصب والهوى والعاطفة.

ويمكن أن نشير الى بعض المعالم والخصائص لهذه القاعدة والأرضية:

أولاً: التأكيد على دور القرآن الكريم والسنة النبوية وأهل البيت عليهم السلام كقضايا مشتركة ومعترف بها ومسلّمة بين المسلمين، فانّ القرآن الكريم نص ثابت محفوظ من التحريف يمكن الرجوع إليه وان اختلف المسلمون في فهمه، ولكن يبقى وجوده عاملاً مهماً من عوامل وحدتهم، والرجوع إليه في الخلاف والنزاع، وكذلك السنة النبوية يرويها المسلمون جميعاً عن أهل البيت عليهم السلام وأصحاب الرسول،وهناك الكثير من النصوص المشتركة التي تثبت بالتواتر، أوبالطرق الصحيحة لدى الجميع، ويبقى الاختلاف في ثبوت بعضها أو فهمه مجالاً للحوار والبحث العلمي، مع الاحترام المتبادل للآراء.

وهكذا الحال في الثقل الآخر للقرآن وهم أهل البيت عليهم السلام فانهم موضع الاحترام والقبول لدى عامة المسلمين، وقد ثبت بالنص القرآني، والسنة

المتواترة، وجوب حبهم والرجوع إليهم[١]، وان اختلف المسلمون في حدود هذا الحب والمرجعية ، أوفي ما ثبت عنهم من نصوص وحديث ومواقف. ولذا فانّ إثارة الشك حول ثبوت القرآن الكريم، أوتضعيف السنة النبوية، أوالطعن بأهل البيتعليهم السلام كما فعله بعض شذّاذ العلماء من الفريقين، مما يؤدي الى المزيد من الاختلاف والفرقة والتمزق. ومن هذا المنطلق يمكن أن فهم تأكيد أهل البيتعليهم السلام على هذه الأُصول المشتركة ، واستنكارهم لمدرسة الرأي فيمقابل مدرسة الحديث، لأنّ مدرسة الرأي تتجه الى تضعيف السنة واهمالها، وتنطلق من دعوى أنه لم يثبت من السنة إلّا عدد محدود من الأخبار والأحاديث.

ثانياً: التأكيد على القضايا المشتركة في الأُصول والقواعد العلمية في وسائل الاثبات مثل قضية وثاقة الراوي، وقضية المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، وانّ القرآن والسنّة يفسّر بعضه البعض الآخر والاستقراء، وغير ذلك من قواعد المنهج العلمي في البحث كما هو مقرر في محلّه.

ثالثاً: الاحترام المتبادل للآراء العلمية والمذهبية، والتعامل معها بروح البحث العلمي، والمناقشة ، بعيداً عن روح الاحتراب والاستفزاز والاستخفاف والتحامل والاتهام، والتأكيد على العلاقات الايجابية أوالعادية التي كانت قائمة بين أئمة المذاهب أنفسهم، وأخذ بعهضم عن البعض الآخر.

رابعاً: التخلي عن روح العدوان على المقدسات المذهبية والشعائر الدينية

---

(١) آية المودة والتطهير وغيرهما وحديث الثقلين المتواترة وغيره.

الخاصة بأصحاب هذا المذهب أوذاك، ومنع أساليب التكفير والتفسيق والسب واللعن للمذاهب، أوالأئمة والعلماء المتمذهبين بها، وكذلك الاعتراف بوجود المذاهب الصحيحة المتعددة ـ بعد تشخيصها ـ سواء على المستوىٰ الرسمي أوالثقافي.

خامساً: العمل على اشاعة ثقافة واخلاقية التقريب بين المذاهب الإسلاميّة، وتجسيد مفهوم الأُمّة الإسلامية الواحدة من خلال التناصر بين المسلمين في قضاياهم الحياتية (مَن سمع مسلماً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم)...

النقطة الرابعة: في الإشارة الى بعض الوسائل النافعة في قضية التقريب، حيث أن قضية التقريب من أجل أن تتحول من مجرّد رغبة نفسيّة وهدف نبيل ومقدّس للمسلمين الى واقع عملي، يحتاج الى بعض الوسائل والأساليب، وهنا نشير الى نماذج من هذه الوسائل:

أولاً: القرآن الكريم في نظر العترة الطاهرة: أُثيرت شبهة كبيرة وواسعة ضد شيعة أهل البيت عليهم السلام باتهامهم بالقول بتحريف القرآن الكريم، مع ان عامة كبار علمائهم يقولون بصيانة القرآن الكريم من التحريف، ولاشك أن توضيح نظرة أهل البيت عليهم السلام الى القرآن وموقفهم العملي تجاهه، سوف يلقي الضوء على هذه الحقيقة ويدفع هذا الاتهام، ويمكن معرفة ذلك من العناوين التالية:

١ ـ جمع القرآن الكريم على يد أهل البيت عليهم السلام ، حيث كان أول من جمعه

هو الإمام علي عليه السلام .

٢ ـ حثّ أهل البيت عليهم السلام على العناية بالقرآن الكريم من خلال التأكيد ـ في روايات كثيرة جداً ـ على فضل قراءته والتدبّر فيه، وفضل حفظه، ومراتب ودرجات حملته.

٣ ـ سلامة القرآن الكريم من التحريف.

٤ ـ التأكيد على حجية القرآن الكريم في نصّه وظهوره من خلال الاستدلال به على الحكم الشرعي، والعقيدة الإسلامية والسنّة التاريخية، وغير ذلك من القضايا، وكذلك من خلال جعله مرجعاً لتمحيص النصوص التي ترد عن أهل البيت عليهم السلام حيث طلبوا من شيعتهم عرضها على القرآن الكريم قبل الأخذ بها: **(فما وافق القرآن فخذوه وما خالفه فاضربوا به عرض الجدار)**.

٥ ـ الاهتمام بتفسير القرآن الكريم ، خصوصاً من خلال طرح المصاديق الحيّة له، وتطبيقه على الواقع المعاش في كلّ عصر من عصور المسلمين، والتأكيد على انّه حيّ باقٍ.

ثانياً: توضيح الرؤية والموقف من الصحابة: لاشك ان الصحابة هم موضع احترام جميع المسلمين، ولكن أُثيرت شبهات حول بعضهم، وحول الموقف منهم، وهنا لابدّ من توضيح الرؤية حولهم بشكل موضوعي، وذلك من خلال الأُمور التالية:

١ ـ الصحابة في زمن الرسول صلى الله عليه وآله ودورهم في الدفاع عن الإسلام، وترسيخ دعائمه، وتضحياتهم العظيمة في سبيله.

٢ ـ التمييز بين الصحابة المؤمنين المخلصين الذين يمثلون الأكثرية منهم، وبين المنافقين الذين تحدّث عنهم القرآن، ممن اضرّوا بالدعوة الإسلامية في زمن الرسول وبعده.

٣ ـ موقف الإمامعليه السلام من كبار الصحابة الذي كان يتصف بالاحترام والتعاون والانفتاح حتى مع الاختلاف في وجهة النظر السياسية أوالفكرية، خصوصاً بعد وفاة الرسولصلى الله عليه وآله .

٤ ـ التمييز في الموقف من الصحابة بين القول بعدالتهم واحترامهم وبين القول ولو عملياً بعصمتهم، وكذلك التمييز بين بعضهم والبعض الآخر في العدالة ومستوى الالتزام، وأيضاً التمييز في الحجة بين روايتهم، وعملهم، وفتواهم.

ثالثاً: توضيح العلاقات المشتركة بين المذاهب الإسلامية في الصدر الأول وفي بدء التأسيس، وذلك من خلال تأليف الكتب، أوكتابة الأبحاث في الموضوعات التالية:

١ ـ رجال الشيعة الذين أخذ عنهم أهل السنّة (الرواية أوالعلم) ، فقد ذكر السيد شرف الدين مئة راوٍ من الشيعة الذين أخذ عنهم أهل السنة كنموذج لهذه الحالة.

٢ ـ رجال وعلماء أهل السنة الذين أخذ عنهم رجال الشيعة وعلماؤهم الرواية والعلم.

٣ ـ الروايات المروية في كتب أتباع أهل البيتعليهم السلام من الشيعة الإمامية

عن أئمتهم عن رسول الله ﷺ بشكل مباشر، والمقارنة بينها وبين ما روي في كتب أهل السنة عن رسول الله ﷺ ، فاننا سوف نجد تراثاً غنياً من المشتركات، الأمر الذي يؤكد هذه الأُصول المشتركة.

٤ ـ ارجاع الروايات التي وردت في الفقه من كتب الشيعة مصادرها في كتب السنّة، والمقارنة في ذلك.

وسوف نجد من خلال هذه الأبحاث الأواصر القوية بين المذاهب الإسلامية.

رابعاً: الأبحاث المقارنة في الفقه بين المذاهب الإسلامية، خصوصاً في المجالات العبادية، والمعاملات ، والأحوال الشخصية، وتشجيع طبع الكتب والكراسات فيها، حيث سوف نلاحظ من خلال ذلك ضيق الهوة المفتعلة الفاصلة بين مذاهب أهل السنة ومذهب أتباع أهل البيت عليهم السلام وبقية المذاهب الإسلامية، إذ قلّ مانجد فتوىٰ لعلماء المذاهب الإسلامية لا يوجد قائل بها من علماء أتباع أهل البيت عليهم السلام .وكذلك العكس ولو بشكل نادر.

خامساً: الفصل في البحث العقائدي والفقهي بين المواقف السياسية والفكرية وبين المواقف الفقهية، أوبين المواقف الفقهية والمواقف العقائدية. فانّ هذا الفصل سوف يكون له أثر موضوعي ونفسي في التقريب.

ولاشك أن التقريب في المواقف السياسية بين الحكومات والبلدان الإسلامية ذات الالتزام الديني بالاسلام ، له أثر عظيم في عملية التقريب بين

المذاهب، لأنّ الخلافات السياسية في مثل هذه الحكومات والبلدان تنعكس على المواقف المذهبية والفقهية والفكرية والثقافية.

سادساً: تشجيع إقامة الجمعيات والمنظمات والمراكز التي تعمل لتقريب المسلمين بعضهم مع البعض الآخر، واشاعة ثقافة التقريب والتعددية المذهبية والوحدة في القضايا الأساسية.

سابعاً: تحكيم منطق البلاغ والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والحوار العلمي الهادئ، بعيداً عن التعصب والارهاب الفكري والسياسي، واثارة النعرات الطائفية والتطرف في المواقف، وذلك من خلال إقامة المؤتمرات العلمية للبحث والحوار واللقاءات المشتركة بين جميع العلماء والمفكرين ، وكذلك إقامة المؤسسات والمنظمات المشتركة بين علماء المذاهب الإسلامية، للقيام بالنشاطات الثقافية والاجتماعية المشتركة، واتخاذ المواقف السياسية الواحدة تجاه القضايا الكبرىٰ للأُمّة.

ثامناً: تشجيع عملية التعايش الاجتماعي بين أبناء المذاهب الإسلاميّة من خلال الشركات والمؤسسات الاجتماعية، وتبادل الزيارات واللقاءات والاشتراك في الاحتفالات والمراسيم لهذه الجماعة وتلك، وغير ذلك من الوسائل الاجتماعية، وقد دعا أهل البيتعليهم السلام شيعتهم بشكل خاص الى هذا التعايش من خلال نصوص صريحة وصحيحة، سواء في الممارسة الاجتماعية أوالعبادية كما أشرنا سابقاً.

وفي الختام فإنّ المسلمين إذا اتجهوا نحو هذا الهدف المقدس فسوف يجدون أمامهم مجالات واسعة وكثيرة تقرّبهم من هذا الهدف، وبالتالي

يكونون في موضع الرحمة الإلهيّة التي هي وراء كلّ توفيق وسداد. ﴿**انّك لا تهدي مَن أحببت ولكنّ الله يهدي مَن يشاء**﴾[1]. والحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين.

(١) القصص: ٥٦.

الفهرس

الباب الأوّل

الوحدة الإسلاميّة من منظور قرآني

الباب الثاني

الوحدة الإسلاميّة في نظرية أهل البيت عليهم السلام